عَلى مائدةِ القرآنِ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والإعلام
١٤٣٧ هـ

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٨٣٠) لسنة ٢٠١٥م

اسم الإصدار: على مائدةِ القرآنِ.

تأليف: شعبة البحوث والدراسات .

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة – قسم الشؤون الفكرية والثقافية.

الطبعة: الأولى.

العدد: ١٠٠٠.

المطبعة: دار الكفيل.

التاريخ: ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

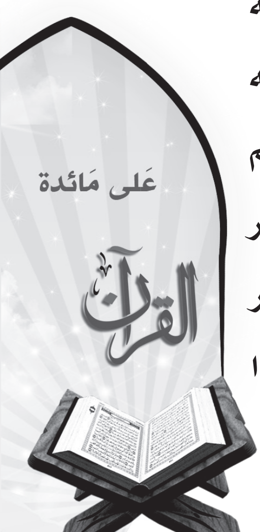
موقع العتبة: www.aljawadain.org للمراسلة: fikriya@ aljawadain.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسلام علـى سـيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين محمـد وعلى أهل بيتـه الطيبين الطاهرين، لا سيما بقيـة الله في الأرضين الإمـام الحجة بن الحسـن عجل الله تعـالى فرجه وجعلنا من أشياعه وأتباعه و الذابين بين يديه.

إذا كان القرآن ربيع القلب، كما أن الغيث ربيع الأرض فبه تحيـا، وبه تنمو، وبه تزدهر، فحيـاة القلب ونموه وازدهاره بالقـرآن، والطريـق إلى ذلك هو ملازمة الإنسـان المسـلم للقـرآن، لذلـك ورد تأكيد اسـتحباب قراءته واسـتحقاق الثـواب الكبير، لكن مـن المعلوم إن قراءة القـرآن مطلوبة كونهـا طريقـاً لفهـم معانـي القـرآن والالتـزام بتعاليمه والسـير على نهجه، فعلى المسلم أن يكون تابعاً للمفاهيم القرآنيـة سـواءً في عقيدتـه أو شـريعته أو أخلاقه وسـائر أمـوره، وممـا يسـاعد علـى ذلـك الرجـوع إلى التفاسـير لكـي يكـون القارئ على بصيرة وهو يقـرأ القرآن، وفي هذا



الكـراس مقالات في مفاهيم قرآنيـة متعددة يجمعها أنها من المائدة الإلهية نفسـها وقد كُتبت في مناسبات مختلفة ونشرت على صفحات مجلة شباب ا لجوادين.

نسال الله سبحانه أن يجعلنا من حملة القرآن وخدمته

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين



المقالة الأولى

لماذا نحن متدينون

قد يسأل سائل بصوت عالٍ أو في نفسه، لماذا نحن متدينون؟ أو لماذا نربط أنفسنا بالدين؟ خاصة وأن الإنسان عندما يدخل حومة الدين وعندما يرتبط بالدين تكون هناك سلسلة من المسائل التي يجب عليه فعلها من صلاة وصوم وحج وزكاة وخمس و... إلخ، وهي عشرات ولعل بعضها لا يتلاءم مع مزاج الإنسان وهواه، وهناك سلسلة أخرى يجب على الملتزم بالدين أن يتركها، مثل الكذب والسرقة والزنا والنظر إلى ا لجنس اللطيف و...الخ، وهي عشرات أيضاً، ولعل بعضها مما يلائم بعض الأمزجة غير المستقيمة، وعليه.. فإن الالتزام بالدين يسبب لفاعله هذا التقييد أو عدم الحرية بممارسة ما يريده الإنسان، ولذلك فمن الأحسن أن ينصرف الإنسان عن الدخول في دائرة الدين حتى يحصل على حريته على الأقل؟! وا لجواب على ذلك:

إن الدين فعلا يدعو الإنسان إلى تحديد حريته بعبودية الله سبحانه، وفي هذا التحديد سيرسم للفرد وا لمجتمع الحياة الصالحة الكريمة أولاً، وثانياً أن التعدي على هذه العبودية لا يخرج الإنسان من دائرة العبودية بل يخرجه من عبودية المولى - وهو يستحق أن يُعبد - إلى عبودية

ثانية وهي عبودية النفس أو الشهوات أو الشيطان وغير ذلك، وكل هذه الأمور لا تستحق أن تُعبد، وبكلمة واضحة أن الإنسان مخيّر بين أن يعبد من يستحق العبادة أو يعبد من لا يستحق ذلك، وثالثاً أن المتسائل نفسه افترض أن بعض لوازم التدين هي خلاف الهوى والمزاج، والمعلوم أن هذا الخلاف ليس خطئاً حتى يترك التدين لأجله، نعم إذا كان خلاف العقل القطعي فيجوز خلافه.. لكننا لا نعلم فقرة من فقرات الدين الصحيح تخالف العقل، بل الدين بكل فقراته لا يقاطع العقل في صغيرة ولا كبيرة، وأزيد من ذلك أن العقل هو الذي يفرض على الإنسان أن يدخل بوابة التديّن ويلزم عليه ما يلزم، فالعقل البشري هو الذي يدفع الإنسان إلى البحث عن الدين.



المقالة الثانية

خلق الإنسان بفطرة سليمة

يولَد كلُ إنسان بفطرةٍ نقيّةٍ توحيديّةٍ بحيث إذا بقي بعيداً عن تأثير العوامل الخارجية (كالتربية والصَداقةِ والإعلام) التي تُسبِّب انحراف عقيدته، سلَك طريقَ الحق.

فليس ثمة شرّير بالولادة والخلقة، بل الشرور والقبائح أُمور ذات صفة عارضة وطارئة تنشأ بسبب العوامل الباطنية والاختيارية، ولهذا فإنَّ فكرةَ المعصية الذاتية في بني آدم المطروحة من قِبل المسيحيّة المعاصرة، لا أساس لها من الصحّة قط.

يقول القرآنُ الكريمُ في هذا الصدد: ﴿فَأَقِم وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها﴾[1].



(١) الروم /٣٠.

المقالة الثالثة

أدوات المعرفة في الإسلام

يستعين الإسلام لمعرفة الكون، والوصول إلى الحقائق الدينيَّة بثلاثة أنواع من الأدوات مع أنّه يعتبر لكلّ واحدٍ منها مجالاً مختصّاً به، وهذه الأدوات هي:

١- الحس: فكل الحواس الخمسة المعروفة عند الإنسان هي أبواب لمعرفة الأمور الحسية.

٢- العقل: وهو قوة مودعة في الإنسان ينطلق بها وفق ضوابط معينة إلى أبعد من الحياة ليثبت أموراً غير حسية.

٣. الوحي: هو نافذة يطل بها المصطفَوْن من البشر على عالم الغيب، وبهذا الطريق يحصل على معرفة لا يحصلها بالطريقين الأولين، وهذا من مميزات الدين الإسلامي الذي يتميز عن الأفكار الوضعية البشرية والتي تشترك مع الدين في طريق الحس والعقل إلى المعرفة، وبهذا الطريق الثالث للمعرفة نحصل على معرفة كثيرة لا يحصل عليها الذي لا يسلك هذا الطريق.

المقالة الرابعة

قرآننا والبسملة

اعتاد الناس في بدء أعمالهم أو تسميتهم لأولادهم أو عندما يُعَنْوِنون مؤسساتهم أن يربطوا ذلك باسم عزيز من أعزتهم وعظيم من عظمائهم ليكون ذلك العمل أو الولد أو المؤسسة مباركاً ببركة ذلك العزيز متشرفاً بذلك العظيم، وليكون هذا البدء والتسمية مذكراً بذلك العزيز العظيم، فإن هذه التسمية والبدء يخلق نوعاً من الارتباط بصاحب الاسم، وقد جرى كلام الله سبحانه على هذا الذي اعتاده الناس، فابتدأ كلامه باسمه تعالى ليكون كلامه كل كلامه مرتبطاً باسمه سبحانه (لأنه العظيم الحقيقي ولا عظيم مستقل غيره، بل إن وجد عظيم فهو يستمد عظمته منه سبحانه ولأنه العزيز الحقيقي ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1]، بل أن كل عمل ليس لوجه لله فهو هالك ومنته، أما العمل الذي يقصد به وجه الله فيكتب له الخلود فبقاؤه مرتبط بعمله لوجه الله، لذلك روى جميع المسلمين عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر)[2] ومعنى ذلك أن كل أمورنا ذات الأهمية لا بد أن تبدأ باسم الله

---

(١) النساء/١٣٩.

(٢) زبدة البيان في أحكام القرآن، المحقق الأردبيلي، ٤.

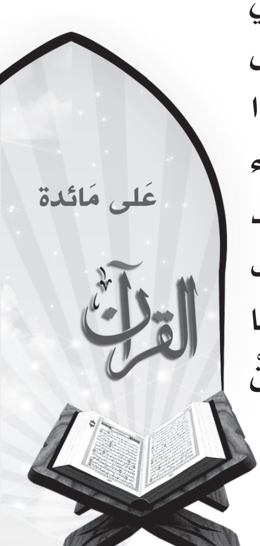
وإلا فهي بتراء أي مقطوعة الآخر، ومعنى الاسم (اللفظ الدال على المسمى) فكل إنسان منا يضع لفظاً ليدل على وليده الجديد مثل (ع. ل. ي) ليكون هذا اللفظ دال على هذا المعنى وبكلمة ثانية يخرج هذا اللفظ المولود الجديد من التنكير إلى التعريف ولذلك يقال عادة أن الاسم من السمة وهي العلامة أو من السمو بمعنى الارتفاع وكلا الأمرين يحصلان بالتسمية، فبالاسم يُعلَّم المسمى (تكون له علامة) ويرتفع عن الجهالة إلى العلم به من خلال الاسم، ومن هذا نفهم إن الاسم غير المسمى، فالاسم لفظ والمسمى معنى خارجي، وقد ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام، (مَن عبد الاسم فقد كفر ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه فهو من الإيمان وذلك التوحيد)[1] وحرف الباء الذي يسبق الاسم يفيد معنى البدء والاستعانة به سبحانه وهذان المعنيان متلازمان فيكون المعنى: أبدأ باسم الله واستعين بذاته المقدسة.

(١) مستدرك سفينة البحار، المؤلف: الشيخ علي النمازي الشاهرودي، ١٦٥/٥.

المقالة الخامسة

جزاء القَتَلة

للإنسان أهمية كبرى في الدين الإسلامي فهو خليفة الله في الأرض أو تحت قيادة خليفة الله، وقد سخر الله له كل ما في الكون، فكل ما في الكون لخدمة الإنسان، ونستطيع القول إن كل أو جل أصول الدين و فروعه فيها إبراز لهذه الأهمية بدءاً بالتوحيد الذي يعني إن الإنسان لا يخضع ولا يعبد إلا الله فلا يعبد بشراً مثله مهما كان مقامه، والعدل الإلهي معناه أن لا يظلم الإنسان تشريعاً ولا جزاءً والنبوة والإمامة معناها دلالة الإنسان وهديه إلى الطريق الموصّل لسعادته، والاعتقاد بالمعاد يجعل الإنسان منضبطاً في سلوكه، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر تقدم للمجتمع إنساناً صالحاً خيره مأمول وشره مأمون، والزكاة والخمس تسد حاجات أهل الحاجة من الناس وفيه نوع من التكافل الاجتماعي والتفات إلى المعوزين، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي تعديل لمسار الإنسان عندما يخطأ في المسير، وهكذا كل ما أوجب الله وما حرم هو في مصلحة الإنسان، بعد هذا كله وتأكيداً لأهمية الإنسان يحرم على غيره الاعتداء على ماله وعرضه ودمه بل جعل الاعتداء على الواحد من الإنسانية كأنه اعتداء عليها جميعاً ورتب على ذلك جزاءً دنيوياً وهو الدية أو القصاص من القاتل، وأما جزاؤه في الآخرة فيقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ



يَقْتُـلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّـدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِـدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّٰه عَلَيْـهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَـدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًـا﴾ (١) فالقصد إلى قتـل المؤمـن (أو قتله لأنه مؤمن) يسـتحق القاصد لذلك الخلـود في جهنـم والغضـب الإلهـي والطرد مـن الرحمة الإلهيـة ويعـد الله له العذاب العظيم، هذا الجزاء يشـمل قاتـل المؤمـن أياً كان هـذا المؤمن لكنها بكل تأكيد تتشـدد إذا كان المقتول ولياً أو إماماً لأن حرمته أشـد وأشد، بل في آيـة أخرى يقرن قتل هؤلاء مع قتل الأنبياء والكفر بآيات الله ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَكْفُـرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُـونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيـمٍ - أُولَئِـكَ الَّذِينَ حَبِطَـتْ أَعْمَالُهُـمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢)، فأعمال هؤلاء السابقة التي يسـتحقون بها الثواب ستبطل وبذلك لا يستحقون إلا العذاب واللعنة والغضب الإلهي وفي الآخرة لا تشملهم شـفاعة الشـافعين، وإذا عرفنـا أن السـبب الرئيس لحركة سـيد الشهداء هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علمنا أن قتلتـه يسـتحقون كل ذلـك وبأعلى درجاته فقد سـئل رسـول الله ﷺ (أي النـاس أشـد عذاباً يـوم القيامة؟ قال: رجـل قتل نبيـاً أو رجلاً أمر بالمعـروف أو نهى عن منكر) (٣) ثم قرأ الآية.

---

(١) النساء /٩٣.

(٢) آل عمران /٢١.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، البحراني سيد هاشم، ١/ ٦٠٦.

المقالة السادسة

عقل ونقل

الأدلة المعتمدة في الدين الإسلامي تنقسم إلى قسمين، أدلة نقلية وهي كتاب الله وسنة رسوله والمعصومين (قولهم وفعلهم وتقريرهم)، فكل ما موجود في الكتاب والسنة يمكن استخراج حكم شرعي أو غير ذلك من هذين المصدرين المهمين، وإلى جانب ذلك هناك دليل آخر وهو العقل وما يكتشفه من أمور، سواء أكان على المستوى النظري والعلمي أم على مستوى العملي، وفي أصول الدين خاصة يجب الاعتماد على العقل لإثبات تلك الأصول ولا يمكن الاعتماد على الدليل النقلي في ذلك لأن الاعتماد عليه في هذا المجال يؤدي إلى الدور الباطل، وبكلمة واضحة يكون الاستدلال هكذا: مَن يثبت وجود الله؟ الجواب: القرآن، ويترتب على ذلك سؤال جديد وما هو القرآن؟ فيأتي الجواب: كلام الله، فيكون الدليل على وجود الله كلام الله وهذا يعني أن الله موجود وله صفة الكلام وهو يثبت وجوده وهذا الكلام لا يقنع من هو خارج الدين لأنه لم يؤمن بعد بالقرآن فلا بد أن نثبت وجود الله سبحانه أولاً وإرساله الرسل ثانياً وختمهم بآخرهم صلى الله عليه وآله ثالثاً وضرورة المعاجز رابعاً وإثبات معجزة

القرآن خامساً، وعليه فلا بد أن نبتدئ بإثبات ذلك عقلاً حتى تصل النوبة إلى الاستدلال بالقرآن والسنة ويصح هذا الاستدلال حتى على غير المؤمن بالقرآن والسنة، نعم يمكن أن نتخذ الدليل النقلي مؤيداً وعاضداً للدليل العقلي في هذه المسائل ويمكن أيضاً أن نتخذه دليلاً إلى أمور فرعية من تلك الأصول كالميزان والصراط وتطاير الكتب، لأن العقل لا سبيل له لإدراك مثل هذه الأمور لكنه سيحكم بالتصديق بها بعد إمكانها وإخبار الصادق بها بعد إثبات صدقه عقلاً.



المقالة السابعة

شريك الفاعل

قال تعالى في محكم كتابه:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّه قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّه فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّه لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[١]

سبب النزول

نزلت بسبب أن الرسول الأكرم ﷺ كتب كتاباً ليهود بني قينقاع ودعاهم إلى الصلاة وإيتاء الزكاة وقد عبر عن الزكاة بتعبير يحرك المشاعر ويثيرها فقال ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّه قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقوبلت هذه الكلمة الطيبة بالسخرية والاستهزاء فقال اليهود (لو كان ما تقولون حقاً فإن الله فقير ونحن أغنياء)[٢] وعندما نزلت هذه الآيات أنكروا أنهم قالوا ذلك وهناك سبب آخر للنزول وهو أن اليهود رأوا أولياء الله فقراء فنسبوا هذا الفقر إلى مولاهم.

---

(١) آل عمران /١٨١.

(٢) أنظر الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي سيد محمد حسين، ج٤، ص: ٨.

نسبة العمل للراضي به

وهنا سؤال مهم وهو إن كان اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ قد قالوا ذلك وأنكروا وهذا هو ديدن أهل النفاق﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّه لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [1] لكن ما علاقتهم بقتل الأنبياء عليهم السلام ولم يباشروا ذلك؟ بل باشره سلفهم، والجواب إنهم رضوا بهذا الفعل فألحقوا بالفاعلين، ومن جانب آخر يلحق بأهل الصلاح من رضي بفعلهم قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد منهم فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا، قال تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)[2].

إدانة الراضي:

يستطيع أي أحد أن يخفي أمره عن الناس سنين طويلة ويخادعهم ويلبس لباساً غير لباسه لكن هذا لا يجري على المولى سبحانه فهو يسمع -كما سمع قول اليهود وهم في خلواتهم- وفوق هذا السماع هناك تدوين لهذا القول ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ ونتيجة هذه الكتابة أن يكونوا مدانين بقولهم، وقد أضاف لقولهم ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ فهم مدانين بذلك أيضاً.

---

(١) التوبة /٦٢.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: شرح: الشيخ محمد عبده ٢/ ١٨١.

جزاء الراضي

لاحظ أن الآيات الكريمات رتبت على إدانة الراضي بفعل أسلافه استحقاقه لنفس جزاء الفاعل المباشر، فقالت بعد سماع كلامهم وكتابته وكتابة قتلهم الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَق﴾ بمعنى يقتلونهم بعد علمهم ومعرفتهم فيعمدون إلى قتلهم، فالقتل لم يكن عن عدم معرفة أو سهو أو خطأ أو جهالة، والراضي بهذا الفعل مشارك لهم با لجزاء ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقال الإمام الباقر عليه السلام: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء)[1] وفي المقابل من رضي بفعل الصالحين نال جزاءهم.

لعن الراضي

اللعن هو الطرد من رحمة الله وهو استحقاق لبعض الأفعال كقتل المؤمن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2] وقد مر بنا أن جزاء الراضي بفعلٍ هو نفس جزاء الفاعل، لذلك نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام (فلعن الله أمة قتلتك ولعن الله أمة ظلمتك ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به)[3] فهنا ثلاث مجاميع ملعونة الأولى مَنْ حضر كربلاء سنة (٦١هـ) وساهم بشكل أو

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٧٣/٢٧٧

(٢) النساء /٩٣.

(٣) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ٦٣٠.

بآخر -ولو بتكثير السواد- في قتل الإمام الحسين عليه السلام، والمجموعة الثانية أوسع من الأولى وتشمل كل الذين دعموا وأيدوا القتلة بالمال والسلاح والإعلام والفتوى سواء حضروا الواقعة أم لم يحضروها، والمجموعة الثالثة أوسع المجاميع جميعاً وتمتد بامتداد الأيام، فكل راضٍ وإن جاء بعد قرون فهو داخل في هذه المجموعة.

حضور الراضي

وفوق كل ذلك يعتبر الراضي حاضراً في مشهد لم يحضره فقد قال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام بعد انتصاره في حرب الجمل وددت لو أن أخي كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله على أعدائك، فقال عليه السلام: أهَوَى أخيك معنا؟ فقال الرجل: نعم، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قد شَهِدَنا، ولقد شَهِدَنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويتقوى بهم الإيمان)[١].

نصيحة وبشارة

على زائري الأئمة عليهم السلام أن يحملوا هذا المفهوم عند زيارتهم وخاصة في زيارة سيد الشهداء عليه السلام فقد كان أول زائر يزوره يوم الأربعين هو صحابي جليل كبير السن

(١) نهج البلاغة، تحقيق: شرح: الشيخ محمد عبده، ط١، ١٤١٢، المطبعة: النهضة - قم، الناشر: دار الذخائر - قم - ايران ٤٤/١.

يتحمل وعثاء السفر والمخاطر وترصّد الأعداء، وهو الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه فقد قال بعد أداء مراسم الزيارة: والذي بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه فسأله عطية العوفي: كيف؟ ولم نهبط وادياً ولم نعلُ جبلاً ولم نضرب بسيف والقوم قد فُرقَ بين رؤوسهم وأبدانهم وأوتمت أولادهم وأرملت أزواجهم؟ فقال: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أحب قوماً حُشِرَ معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم والذي بعث محمداً بالحق إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه[1].

(١) بحار الأنوار ج٦٥ ص١٣١.

المقالة الثامنة

البحث: ضرورة عقلية

يعرّف المنطقيون الإنسان بأنه (حيوان ناطق) والكلمة الأولى من التعريف مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوانات وما يميزه عنها هو الكلمة الثانية في التعريف وتعني عندهم (القابلية على التفكير) فينتج من هذا أن الإنسان يشترك مع غيره في الحيوانية ويتميز عن غيره بهذه القابلية وهذا التمييز كان السبب الرئيس في تطور البشر دون سائر الحيوانات التي تعيش على وجه الأرض، فإنها تعيش على وتيرة واحدة منذ أن خلق الله السموات والأرض ومن فيها وما عليها وهو بنفسه الداعي إلى التفكير في الأسئلة الخالدة التي مرت على كل العقلاء رغم تباعدهم وتباينهم من حيث الزمان والمكان واختلاف الحضارات والثقافات، وأهم تلك الأسئلة هي من أين جئنا؟ أو ما هي نقطة انطلاق البشرية والكون؟ والسؤال الآخر إلى أين نحن ذاهبون؟ أو ما هي نقطة النهاية؟ والسؤال الأخير كيف نتحرك بين النقطتين؟ وهل هناك غاية في خلقنا؟ وكيف نحقق هذه الغاية؟ ألا نحتاج إلى دليل يدلنا على ذلك؟ وغيرها من الأسئلة التي تلح على الفكر البشري وتطلب إجابة، وإجاباتها الصحيحة تكمن

في أن الله سبحانه هو المبدأ وإليه المنتهى وله غاية في هذا الخلق، وغايته معرفة الإنسان لربه وعبادته وهو ما أسميناه السير من نقطة البداية إلى نقطة المنتهى، وهذا لا يكون إلا عن طريق أفراد يصطفيهم الله سبحانه من بين البشر لتبليغ ما يريده المولى منهم وما يمنعهم عنه وهذا هو مبدأ النبوة والذي يحتاج إلى امتداد بعد رحيل أصحابها وهذا هو مبدأ الإمامة، وبذلك يمكن القول أن العقل السليم وحده يمكن أن يدلنا على المبادئ الرئيسة لأصول الدين.

المقالة التاسعة

تفاضل الرسل واقتتال الأتباع

قال تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[١].

تبدأ الآية الكريمة بكلمة (تلك) الدالة على الإشارة إلى بعيد لتدل على فخامة آمر الرسل المذكورين في السورة المباركة أو الرسل عموماً، فهم وإن اتفقوا بأصل الرسالة إلا أنهم يختلفون في المقامات والدرجات، وقد سمى القرآن هذا الاختلاف تفضيلاً ونسبه إلى الله سبحانه (فضلنا)، فالكلام الإلهي المباشر درجة يختص بها موسى الكليم عليه السلام، وإن كان الوحي الإلهي نوعاً من الكلام وهي صفة مشتركة

(١) البقرة /٢٥٣.

لـكل الرسـل والأنبيـاء وبعض الرسـل رفعه الله سـبحانه درجـات ولـيـس درجـة واحدة، ويـكاد يجمع المفسـرون بأن صاحـب هذا المقام هو خـاتم الأنبياء ﷺ فهو المبعوث لكل الناس وهو الرحمة المهداة وبه ختمت النبوة والكتاب الذي أنـزل عليه مهيمن علـى الكتب الإلهيـة، والمفضل الثالث هـو عيسـى عليه السلام فقد آتاه الله سـبحانه الدلائـل الواضحة وأيده تأييداً ربانياً وهو التأييد بروح القدس، وهذا الإيتاء والتأييد لا يخلو منه مرسل من المرسـلين ولا بد أن يكون ذلك داعياً لوحدة الأمم بعد رسـلها وعدم اختلافهم، لكن مـا حدث هـو عكس ذلك تماماً، فقد اختلف أتباع الرسـل بعدهم والسبب في ذلك بتعبير القرآن ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[١].

فبعد حصول العلم (بسبب البيان) يكون الاختلاف، وسببه (البغـي)، وأصل هـذه الكلمة الطلب ويكثر استعمالها في مـورد الظلـم لكونه طلبـاً لحق الغير بالتعـدي عليه، قال الرسـول الأكـرم ﷺ: (ثـلاث هن رواجع علـى أهلها النكث والمكر والبغي)، ثم تلا ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِـكُمْ﴾ و ﴿وَلَا يَحِيـقُ الْمَكْرُ السَّـيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ و ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِـهِ﴾[٢]، وهذا الكلام يشمل أتباع خـاتم الأنبيـاء ﷺ فـإن حصل بينهـم اقتتال فسـببه هو

(١) آل عمران/ أية ١٩.

(٢) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ٤/ ١٤٨.

البغي و الاختلاف (لا في الاجتهاد) بل في اختيار الكفر أو الإيمان ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ ولا يعنينا أن الكفر هو مخرج من الملة أم لا، وبكلمة ثانية لا يعنينا درجة الكفر، وبهذا احتج أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه فقد جاءه رجل فقال كبّر القوم وكبّرنا وهلّل القوم وهلّلنا وصلى القوم فصلّينا فعلى ما تقاتلهم؟ فقال عليه السلام على هذه الآية)[1]، وأخيراً فإن المشيئة الإلهية المذكورة في آخر الآية هي (التكوينية) فلو شاء الله -تكوينا- أن يمنع القتال بين الأتباع لفعل ولكنه سبحانه تركهم أحراراً ليختاروا طريق الحق أو طريق الباطل وهذا لا يمانع أن تكون مشيئته التشريعية غير ذلك فقد أمر من الأمة بالوحدة والاجتماع ونهاهم عن الفرقة والاقتتال فهم مسؤولون عن فعل الأول واجتناب الثاني.

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ٢٥٤.

المقالة العاشرة

الكرامة بالتقوى

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١]

الخطاب عام لكل الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، وليس خاصاً بالذين آمنوا كما في كثير من الخطابات القرآنية لتذكيرهم بـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ والخلق من الذكر والأنثى يحتمل أحد معينين:

الأول: آدم وحواء فيكون المعنى أيها الناس أنكم مشتركون في هذا الأب والأم من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والأعجمي بل يزيد القرآن على ذلك برجوع الخلق إلى نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٢].

الثاني: مطلق الرجل والمرأة فكل واحد من الناس مولود من إنسانين فلا فرق بين الجميع من هذه الجهة حتى

---

(١) الحجرات / ١٣.

(٢) النساء / ١.

قيل في المواعظ (كيف يتكبر الإنسان وقد خرج من مجرى البول مرتين)[١]. ومن هذا الأصل الواحد انشعبت البشرية حتى صارت (شعوباً وقبائل) وهذا الانشعاب هو جعل إلهي ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ فكما أن الخلق الأول ينسب إلى الله سبحانه فأن انتشاره وكثرته ينسب إلى الله أيضاً ورغم أن كل ما ينسب إلى الله سبحانه فهو عين الحكمة، وإن غاب عنا أحياناً وجه الحكمة في بعض تلك الأفعال لكنه سبحانه نص هنا على حكمة هذا التفريق فقال ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ وهذا التعارف يقود حتماً تبادل المعرفة والتكامل البشري باستفادة كل أحد من تجربة وعلم الأخر فمن الخطأ أن يكون هذا ا لجعل منشأ للتكاثر أو التفاخر أو شيء أخر خلافاً لحكمة المولى سبحانه، وفي آخر الآية تبين أن محور الكرامة هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ﴾ فكل مَن بدّلّ أتقاكم بـ أغناكم أو أقواكم أو غير ذلك فقد خالف الله سبحانه بميزان الكرامة وخاصة من يستخدم انتماءه إلى جماعة ما ميزاناً للتفاضل على الآخرين فقد خط منهجاً غير منهج القرآن، وتختم الآية ﴿إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فهو سبحانه يعلم من هو صاحب التقوى فيستحق الكرامة، وهناك نهي قرآني يؤكد هذا المعنى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[٢] وفي هذا النهي سد لباب ادعاء التقوى

(١) أنظر إحياء علوم الدين، الغزالي، ٩/١١.

(٢) النجم /٣٢ .

وبالتالي غلق ادعاء الكرامة لأن الميزان ليس في أيدينا ولا نحيط به علماً بل علم ذلك عند العليم الخبير وهو أعلم بمن اتقى وفي هذا سد لباب أن أي إنسان مهما بلغ من التقوى أن يرى نفسه خير من الآخرين، وفي المواعظ على الإنسان أن يحسب نفسه أنه بدأ قبل الصغير في المعصية ويحسب أن الكبير غيره بدأ بالحسنة قبله وليس للأنوثة أو الذكورة دخل في الموضوع من قريب أو بعيد فقد قال المولى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]

(١) النساء ١٢٤.

المقالة الحادية عشر

غاية الخلق (العبادة)

يتحدث القرآن في كثير من آياته عن بدء خلق الإنسان وطريقة استمرار النسل وموضع الإنسان في الكون والغاية في خلقه، وقد بحث هذه المواضيع الفلاسفة والباحثون الذي لا يرجعون إلى القرآن فشّرقوا وغّربوا ووصلوا إلى نتائج لا تشبه بعضها البعض الآخر، وتبقى كلمة القرآن في هذا المجال هي الفصل لأن المتكلم في القرآن هو الخالق نفسه فهو يعرف عن ماذا يتحدث لأنه يتحدث عن فعله هو وغايته من فعله وأن أصر بعض المسلمين عن الاعتراض على غاية أفعال الله باعتبار أن الغاية تكمل الفاعل، والله سبحانه كامل لا يتصور فيه النقص حتى يكمل في بعض أفعاله، بينما يصر آخرون على أن كل فعل لا هدف له ولا غاية له يكون عبثياً والله سبحانه حيكم لا تتصف أفعاله بالعبث، واتهموا الطائفة الأولى بأنهم لم يميزوا بين غاية الفاعل وغاية الفعل، فالفاعل تارة يكون غير كامل فيفعل حتى يسد هذا النقص، وتارة يكون الفاعل كاملاً فيكون هدف فعله عائداً إلى خلقه لا لنفسه وهذا لا محذور فيه، فمثلاً يحدثنا القرآن أن الله خلق الموت والحياة وذكر الهدف من ذلك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾، وقد فسر النبي ﷺ ذلك (أيكم أحسن



عقلاً) ويقول الإمام الصادق عليه السلام: (ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة)(١)، ومثال آخر يتحدث عن أعضاء البشر ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢) ، ونتيجة هذا الشكر الذي هو غاية جعل الأعضاء هو لنفس الشاكر وليس للمشكور سبحانه (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)(٣). وفي الآية الكريمة خلق الإنس وا لجن والغاية منها العبادة، وللعبادة في القرآن ثلاثة معانٍ:

١- الطاعة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٤).

٢- الخضوع والتذلل ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (٥)

---

(١) التفسير الأصفى، الفيض الكاشاني، ١/٥٣١.

(٢) النحل/٧٨.

(٣) النمل/٤٠.

(٤) يس/٦٠.

(٥) المؤمنون/٤٧.

٣- التأله ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّه وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾[(١)].

وهذا المعنى الأخير هو الأمر الذي بلغه جميع رسل الله وأنبياؤه لأممهم فكل دعواتهم هي ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّه مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[(٢)] فهي دعوة نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام بل كل الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّه﴾[(٣)]. وهذا المعنى هو القاسم المشترك بين كل أصحاب الأديان ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّه وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّه﴾[(٤)].

وقد ذكر القرآن الكريم ثلاث دواعي للعبادة:

١- الطمع في الأجر ﴿وَعَدَ اللَّه الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّه الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٥)].

٢- الخوف من النار ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٦)].

---

(١) الرعد/٣٦.

(٢) الأعراف/٥٩.

(٣) النحل/٣٦.

(٤) آل عمران/ ٦٤.

(٥) النساء/٩٥.

(٦) الأنعام/١٥.

٣- أهلية المولى سبحانه للعبادة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[1]. وكل هذه الدوافع نجدها من دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام (ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)[2].

---

(١) الحديد/٢٠.

(٢) جامع السعادات، ملا محمد مهدي النراقي، ١/٦٣.

المقالة الثانية عشر

ليلة القدر

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[١]، بيَّن القرآن الكريم الأيام المعدودات المطلوب صومها بأنها شهر رمضان والذي عُرف بأنه الذي ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وإذا ضممنا إلى ذلك آيتين كريمتين تتحدث عن الإنزال أيضاً وعن زمان هذا الإنزال فنقرأ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٣]. ينتج أن ليلة القدر وهي ليلة مباركة، وهي ليلة من ليالي شهر رمضان، وهي الوعاء الزماني لنزول القرآن الدفعي (أي النزول مرة واحدة)، وسبب تسميتها بذلك لأحد هذه الأسباب (ولا مانع من اجتماعها كلها أو جلها).

١- القدر من التقدير، فهي الليلة التي يقدر الله بها حوادث السنة منها إلى مثلها في العام القابل من حياة ورزق وسعادة وشقاء وغير ذلك، وبتعبير القرآن نفسه ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٤] وفي هذا دليل على ارتباط الحوادث وتقديرها ونزول القرآن أولاً ودلالة على استمرارها في كل سنة ولا تنقطع بموت النبي ﷺ ثانياً

---

(١) القدر /٣.

(٢) القدر / ١.

(٣) الدخان /٣..

(٤) الدخان / ٤.

٢- القـدر بمعنـى الضيـق لضيـق الأرض فيهـا بنـزول الملائكة.

٣- القـدر بمعنى المنزلة والشـرف للاهتمام بمنزلتها أو بمنزلة المتعبدين بها، ولذلك تسمع خطاب المولى سبحانه لسـيد الرسـل ﷺ ﴿وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا لَيْلَةُ الْقَـدْرِ﴾[1]، وهذا الخطاب فيه كنايـة عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها، فالخـاتم ﷺ لا يعلم قدر هذه الليلة بدون التعليم الإلهي الـذي جـاء مؤكـداً (ليلة القـدر خير من ألف شـهر) هذه الليلة والتي تشبه الليالي السابقة عليها واللاحقة عندنا هـي عنـد الله خـير من ألف شـهر، وهـي أكثر مـن ثمانين سنة، وتفسر هذه الخيرية بتفاسير عدة ولا مانع أيضاً من الجمع بينها:

١- إن الرسـول الأكـرم ﷺ أخـبر أصحابـه عن رجل من بني إسـرائيل جاهد في سـبيل الله ثمانين عاماً فاستعظم الصحابـة ذلـك فجـاءت الآيـة لتؤكـد إن هـذه العطيـة الإلهيـة- ليلـة القدر- لا تسـاوي تلك الألف شـهر بل هي خير منها[2].

٢- إن الرسـول الأكرم ﷺ رأى في المنام أن أعداء الإسـلام القدامـى يتسـللون إلى قمة الحكم الإسـلامي ويصعدون

---

(١) القدر / ٢.

(٢) أنظر تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ج٥، ص: ٦١٥.

على منبره الشـريف كنزو القردة، فشق ذلك عليه فجاءت الآية لتسـلي الرسـول الأكرم ﷺ، إن ليلة واحدة وهي من العطايا الإلهية لك هي خير من ألف شهر وهي مدة حكم هـؤلاء الأعداء، مما يعني أن الأعداء مهما تسـلطوا على المؤمنـين وطالـت مدة تسـلطهم فـإن ذلك لا يعـني هواناً للمؤمنـين بل أن هناك ليلة مباركة (ويسـتفاد من بركتها المؤمنون) هي خير من هذه المدة الطويلة لحكومة الأعداء.

٣- إن خيريـة هـذه الليلـة مـن حيـث فضيلـة العبـادة، فإحياؤهـا بالعبـادة خـير مـن عبادة ألـف شـهر، ولا عذر للإنسـان المسـلم بعد هذا بالتقصير، بحجـة قصر العمر فـإن ليلة واحدة تعادل عمراً كاملاً، فلو فرضنا أن إنسـاناً عاش عشـرين سـنة فإذا حذفنا الخمس عشرة سنة الأولى لأنه غير مكلف فذلك يعني أنه سيدرك ليلة القدر خمس مـرات وكل ليلة خير من ألف شـهر فهـذه الليالي الخمس هي خير من خمسة آلاف شهر.

وهـذا ما يدفع الإنسـان إلى تحري تلـك الليلة حتى إذا كانـت مـرددة بـين ليلتين أو أكثـر ولا يفوت هـذه الفرصة الذهبيـة بقيـام تلـك الليلـة وتـلاوة القـرآن، وذكـر الله سبحانه، والصلاة على النبي وآله، والغسل، وغير ذلك كما هو معلوم ومذكور في كتب الأدعية والزيارات.

المقالة الثالثة عشر

لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾(١).

لم يهتم القرآن الكريم بأسماء أصحاب الكهف بقدر اهتمامه بوصفهم بأنهم ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، والظاهر من تقرير القرآن لهذه الحقيقة أن هذا الإيمان كان مقبولاً عند الله، بل استحقوا من أجله زيادة الدرجات ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، رغم أنهم كانوا يعيشون في وسط وثني ولم يكونوا من عامة الناس بل من خاصة البلاط ومقربي الملك، وقد تركوا كل الدنيا وتوجهوا إلى ربهم ليهيئ لهم من أمرهم رشداً، وقرروا الاعتزال من المجتمع الوثني والفرار بدينهم فآووا إلى الكهف وأنامهم المولى سبحانه ثلاثة قرون أو أكثر، وبعد هذا النوم الطويل وكّلوا أحدهم أن يأتي لهم بشيء من الطعام، ويتفاجأ هذا المرسل بالتغير الكبير، فالبلاد غير البلاد والعباد ليس من يعرفهم ويعرفونه،

(١) الكهف/ ٢١.

وإذا عصر الوثنية قد انتهى وجاء عصر التوحيد، وقد كان مجيئه سبباً للعثور على فتية مضت السنوات الطويلة على قصتهم العجيبة وكان حكمة هذا الإعثار ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ، أي ليعلم أصحاب الكهف صدق الوعد الإلهي بنصرة أوليائه والمعاد إليه سبحانه، أو أن المطلعين على قصتهم يعلمون ذلك وفي نهاية القصة وبعد اختيارهم للقاء الله يقع نزاع بين المطّلعين على أصحاب الكهف ففريق يرى ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وهناك فريق آخر أسماه القرآن الغالب، وكان الزمان زمان توحيد والغلبة لأهله ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ، والمسجد كما هو معروف مكان يعد لعبادة الله سبحانه وقد ذكر القرآن ذلك الاتخاذ بدون أي نكير أو حتى أشارة إلى أن هذا الفعل من أفعال الجاهلية مثل غيره من وأد البنات والتشفع بالأصنام أو قتل الأولاد خشية الفقر وغير ذلك مما هو مذكور في الكتاب الكريم، وقد استفاد أغلب مفسري القرآن جواز البناء على القبور من الآية الكريمة فضلاً كونه من تعظيم شعائر الله المطلوب شرعاً، وهو من أوضح مظاهر محبة أصحاب القبور ، وبعضهم تكون مودته واجبة بل هي أجر الرسالة، وإضافة إلى ذلك نجد أن صحابه الرسول ﷺ يبادرون لدفنه في بيت مسقف (ولا

فرق بينه وبين البناء على القبر) بلا نكير من أحد وتوسع المسجد بعد ذلك بسنوات وانضمت تلك الحجرة الشريفة إلى المسجد بلا نكير من أحد، وسيرة المسلمين قائمة على ذلك وعلى مختلف مذاهبهم ومشاربهم وامتد ذلك لمدة سبعة قرون ونصف، وبعدها جاء ابن تيمية ليحرم ذلك بل ويحرم الصلاة فيها ويحرم شد الرحال إليها ووجوب هدمها، وتبعه على ذلك تلامذته، لكنها بقيت فتاوى في بطون الكتب، إلى أن جاء محمد بن عبد الوهاب وحوّل ذلك إلى مذهب فقهي يفرض نفسه بقوة السيف على المسلمين رضوا أم لم يرضوا، وذلك بتحالفه مع بعض الحكام وبذلك خرجت المسألة عن كونها علمية خلافية يدرس أدلة الطرفين ويحترم كل من الطرفين الطرف الآخر إلى مسألة تهدر بها الدماء البريئة وتهتك بها المقدسات الإسلامية ولا يراعى فيها حق المسلم.

المقالة الرابعة عشر

إكمال الدين وإتمام النعمة

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ (١)

يحدثنا القرآن عن يوم نزول مائدة من السماء وقد طلب الحواريون ذلك من المسيح عليه السلام ليكون عيداً فقال عيسى عليه السلام: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢) فكيف لا يكون اليوم الذي يصفه القرآن بصفات أربع كل واحد منها بمفرده يستحق الاحتفال به واتخاذه عيداً:

١- فهو يوم شعر فيه الكفار (كلهم جميعاً) باليأس الكامل فلا أمل لهم بالدين بعد ذلك اليوم.

٢- وهو يوم أكمل الله للمسلمين الدين مما يدل على عظم الحدث في ذلك اليوم الذي صار سبباً لهذا الإكمال.

---

(١) -المائدة /٣.

(٢) - المائدة /١١٤.

٣- وهـو يوم أتم الله تعالى نعمته على جميع المسلمين وفيه إشارة واضحة أن هذا الإتمام لم يكن قبل هذا اليوم.

٤- وهو يوم رضي الله تعالى أن يكون الإسلام ديناً خالداً لجميع البشر.

وواضح أن كل واحـدة من هذه الأمور تستحق أن تتخذ عيداً فكيف إذا اجتمعت بيوم واحد؟ فأي يوم مبارك هذا؟ بحيث اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره من الأيام، وفي الروايات أن بعضاً من أهل الكتاب كانوا يقولون لو كان عندنا مثل هذا اليوم لاتخذناه عيداً. والملاحظة الأولى في بيان هذا المقطع القرآني أنه وقع مقطعاً وسطا بين مقطعين آخرين، الأول منهما يتحدث عن حرمة بعض اللحوم والمقطع الآخر استثناء من تلك الحرمة، وكأن المقطعين (الأول والثالث) جملة واحدة لا يغير معناها بل تكون له نفس المعنى الوارد في آيات تحريم أنواع من اللحوم واستثناء حالة الاضطرار الواردة في سورتي البقرة والأنعام، ويشهد ذلك أن أغلب المفسرين إن لم نقل كلهم مجمعون على معاملة هذا المقطع أنه نزل وحده وإن أصر بعض المفسرين على العلاقة الوثيقة بين تحريم اللحوم وإكمال الدين وإتمام النعمة ويأس الكفار ورضا الرب بالدين ولا نعرف كيف تحصل كل هذه الأمور بعد التأكيد

على التحريم الذي نزل في أواخر عهد النبي ﷺ ولم تتحدث بنفس التحريم في أول هجرة النبي ﷺ عند نزول سورة البقرة والأنعام، ولذلك اضطر المفسرون للبحث عن يوم يصلح أن تنطبق عليه هذه الأوصاف فكثرت الآراء، فمن قائل أنه يوم البعثة وآخر قال أنه يوم فتح مكة سنة (٨)هـ وثالث قال أنه يوم نزول سورة براءة سنة (٩) هـ ورابع قال أنه يوم عرفة سنة (١٠)هـ، وبالتأمل لا نجد أن هذه الأيام تحتوي على كل تلك الأوصاف القرآنية فمتى يأس الكفار في أول البعثة وقد كانوا في قمة أملهم؟ ومتى كان للمسلمين ديناً حتى يكون في أول البعثة مرضياً؟ أما فتح مكة فقد وصل مشركوها إلى اليأس لا كل الكفار أما مشركو ا لجزيرة وأهل الكتاب فلا، وبعد هذا الفتح عاش الرسول الأكرم ﷺ سنتين نزلت فيها الكثير من الأحكام والتشريعات ودخل في كثير من الصراعات مع مشركي ا لجزيرة مما يدل على عدم يأسهم من الدين وأهله، وبعد سنة وإن طُهرت الكعبة من آثار الوثينة وحررت مكة من سيطرة قريش الكافرة إلا أن أطراف ا لجزيرة لا يزال مسيطراً عليها من قبل مشركي العرب فضلاً عن كفار أهل الكتاب الذي كانوا يمثلون القوى العظمى في المنطقة، فلم يبق إلا احتمال واحد نصت عليه الروايات الواردة في كتب الفريقين إن الآية نزلت في غدير خم يوم

تنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام)، فبولايته (عليه السلام) كَمُل الدين وتمت النعمة ويئس الكفار ورضي المولى سبحانه الإسلام ديناً[١]، ومن هنا نعرف قيمة الولاية في الدين الإسلامي فبدونها يبقى الدين غير كامل والنعمة ليست بتامة، ويبقى أمل الكفار بالدين، يقول الإمام الباقر (عليه السلام): (بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن، قلت:ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: الصلاة عمود دينكم، قال: قلت: ثم الذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة لأنه قرنها بها وبدأ بالصلاة قبلها وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الزكاة تذهب الذنوب. قلت: والذي يليها في الفضل؟ قال: الحج قال الله عز وجل: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)[٢].ولذلك نهانا الله عن أن يخشى منهم بعد اليوم لكنه أمرنا بخشيته في هذا الأمر لأن تعديه سيعيد الكفار لطمعهم في المسلمين ودينهم ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فهل خشي المسلمون المولى بذلك؟ واقع المسلمين الحالي وماضيهم القريب والبعيد يدل على خلاف ذلك.

(١) ينظر الغدير، : الشيخ الأميني، ١/ ٢٣٠.

(٢) الوافي، الفيض الكاشاني، ٤/ ٨٩.

المقالة الخامسة عشر

حرُمات الله وشعائره

من أسماء الله سبحانه (العظيم) ومع ذلك فإن هذا العظيم قد يذكر بعض الأمور ويصفها بالعظمة كخلق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وزلزلة الساعة والأجر الذي ينتظر المؤمن والبلاء الذي يصيب البعض في الدنيا وغير ذلك كثير وهناك أمران أمَرَ المولى سبحانه بتعظيمها:

الأول: هو حرمات الله ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[1].

الثاني: شعائر الله ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2].

والحُرُمات جمع (حُرمة) وهي ما لا يجوز هتكه ويجب مراعاته والشعائر جمع (شَعيرة) وهي العلامة وشعائر الله الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته.

ولا شك أن هذين المفهومين ينطبقان على كثير من المصاديق وأعظم تلك الحرمات هي حرمة المؤمن، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية لله وحرمة ماله كحرمة دمه)[3] فلا يجوز هجره ولا إذلاله ولا إهانته ولا الاستخفاف به وتتبع عوراته وإذاعة سره وطعنه واتهامه وغيبته وبهتانه

(١) الحج/ ٣٠.

(٢) الحج/ ٣٢.

(٣) المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي، ٨/ ١٦٣.

فضلا عن قتله وسفك دمه، وتتأكد هذه الحرمة وتزداد أهميتها في سادات المؤمنين (أهل البيت عليهم السلام)، فسيد الشهداء عليه السلام مثلا هو آخر من بقي من الخمسة أصحاب الكساء عليه السلام فهو وارث لمكانتهم وهو الذي خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله على صغر سنه لمباهلة نصارى نجران وهو سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي وقد قال فيه صلى الله عليه وآله: (حسين مني وأنا من حسين)[1] و (أحب الله من أحب حسيناً)[2] و(الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة)[3] و(أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم)[4] فحرمته أعلى مراتب الحرمة والجماعة التي تهتك هذه الحرمة هي قادرة بطريق أولى لهتك كل الحرمات الأخرى.

ولا شك في دخوله عليه السلام وجهاده في سبيل الله وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وطلبه الإصلاح في أمة جده وطلبه السير على وفق سيرة المصطفى والمرتضى عليهما السلام تحت مفهوم (شعائر الله) بعد أن نعلم من القرآن دخول (الصفا والمروة) وهما جبلان تؤدى عندهما جزء من عبادة الحج والذبائح التي تذبح في هذه الفريضة المباركة في هذا المفهوم، والملاحظ أن القرآن عندما يذكر شعاريتها يذكر أن ذلك (من شعائر الله) وليس شعائر الله، مما يدل على سعة

---

(١) أوائل المقالات، الشيخ المفيد، ١٧٨.

(٢) كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه، ١١٦.

(٣) مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني، ٥٢/٤.

(٤) الأمالي، الشيخ الطوسي، ٣٣٦.

هـذا المفهوم ودخول مصاديق كثيرة غـير ذلك، وقد أجمع فقهاء الإسـلام على ذلك وقد اسـتفاد فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام من ذلك مشروعية تجديد ذكرى سيد الشهداء بما متداول بين المؤمنين من عصر النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين إلى يومنـا وبشـرط أن لا يُرتكـب الحـرام وضـرورة إبـراز أهداف النهضة الحسـينية المباركة.والتي هي نفس أهداف القرآن والسنة المباركة مما يؤدي إلى إحيائها وخاصة إذا دمجت مع البعد العاطفي ووظفت للحفاظ على العقيدة والثقافة الإسـلامية ومواجهة البـدع والضلالات وإيقاظ ضمير الأمـة وتوعيتها وتعريفها بموقفها الشـرعي تجاه الظلـم والظالمـين وتعبئتها روحيـاً ومعنويـاً وخلق الروح ا لجهادية وتربية الأمة على الاستعداد للتضحية والفداء من أجل الإسلام وإن المسلم يفدي نفسه ونفيسه في سبيل دينه وخاصة أن الأمة في انتظار قائد سيقودها إلى خوض معـارك كبيرة وكثـيرة مع أعداء شرسـين، ومهمة ووظيفة هـذا المنتظر أن يمـلأ الأرض - كل الأرض- قسـطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً.

المقالة السادسة عشر

التابع (مِنِّي) والمخالف (لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)

يحدثنا القرآن الكريم إن إبراهيم الخليل عليه السلام وبعد بنائه الكعبة المشرفة دعا ربه أن يجعل البلد الحرام (مكة) بلداً آمنا وأن يجنبه وأبناءه عبادة الأصنام التي ضل كثير من الناس في عبادتها، وبعدها قال (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)[١] ومعناه لو انحرف أحد أبنائي عن مسيرة التوحيد واتجه إلى عبادة الأصنام فأنه ليس مني ولو كان غير أبنائه على مسيرة التوحيد لكان ذلك الغير (مِنِّي)، وفي آية أخرى يرد القرآن دعوى اليهود والنصارى إن إبراهيم عليه السلام منهم فيقول ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ثم يقرر هذه الحقيقة أن الارتباط بالأنبياء والولاء لهم إنما يكون من طريق الإيمان بهم وأتباعهم فيقول ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾[٣] ومن هذه الآية وعلى ضوئها قال أمير المؤمنين عليه السلام (إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به)[٤] ثم قال (أن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته وأن عدو محمد

(١) إبراهيم /٣٦.

(٢) آل عمران /٦٧.

(٣) آل عمران /٦٨.

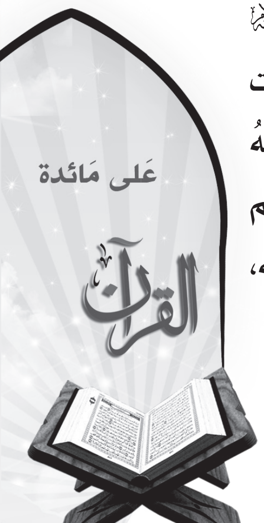
(٤) مسند الإمام علي عليه السلام، السيد حسن القبانجي، ٩/٣٠.

مـن عصـى الله وإن قربـت قرابتـه)[١] وفي مقابـل تقريـب البعيد هذا هناك تبعيد للقريب وسـببه هذه المرة هو عدم الاتبـاع أو المخالفـة ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِـنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٢] وقد فسـر الإمام الصادق عليه السلام عدم صلاحه (لأنـه كان مخالفـاً له وجعل من اتبعه مـن أهله)[٣] ولعل الإمام عليه السلام يشير إلى قوله تعالى ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيـمِ﴾[٤] وقد رفض الإمام الرضا عليه السلام تفسـير البعض لعـدم الصلاح بأنه ليس من أبيه (كذبوا هو منه ولكن الله نفـاه عنه حين خالفه في دينـه)[٥]، ومن الأمثلة الواضحة على الاتباع والمخالفة من صدر الإسـلام إن رجلاً فارسـيا نشـأ في بيئة مجوسية لكن لم يتأثر بتلك الأجواء وبحث عـن الدين الحق ولاقى في سـبيل ذلـك المتاعب والمصاعب ورافـق الكثير من علماء النصارى وكانوا يبشـرونه بظهور خـاتم الأنبيـاء صلى الله عليه وآله وحـددوا لـه منطقـة ظهـوره وقاسـى الكثير للوصول إلى هذه المنطقة بصورة عبد يُباع ويُشترى فسـعى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله لتخليصه من الرق ليكون جزءاً مـن الأمة الإسـلامية، تلـك الأمة الـتي لا تعترف بحاجز

(١) نهج البلاغة، تحقيق: شرح: الشيخ محمد عبده، ٤/٢٢.
(٢) هود/٤٦.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام الشيخ الصدوق، ٢/٨٢.
(٤) الأنبياء /٧٦.
(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام الشيخ الصدوق ج٢ ، ص:٨٢.

الأعـراق وغيرها، فتجد سـلمان الفارسـي إلى جنب بلال الحبشي إلى جنب صهيب الرومي إلى جنب علي القريشي الهاشمـي، وقد أفـاد هذا التنوع المجتمع الإسـلامي بنقل تجارب تلك الأمم للاستفادة منها، ومن ذلك اقتراح سلمان حفـر الخندق في غزوة الأحـزاب وقد تفاجئت قريش بهذا التدبـير مما جعل سـلمان محـط أنظار المسـلمين وتنازع المهاجرين والأنصار كل يدعي أن سـلمان منهم وقد حسم ذلك الرسـول الأكرم ﷺ بقوله: (سلمان منا أهل البيت)[1] وفي هـذا الحديـث الشـريف دلالتـين، الأولى أن المجتمـع الإسـلامي لا ينقسـم إلى طبقتـين (مهاجريـن وأنصـار) بـل هنـاك طبقة ثالثة (هم أهل البيـت) وهي طبقة أعلى مـن تلـك الطبقتين، والثانية أن سـلمان من هذه الطبقة الرفيعة ويقيناً أنه لم يحصل ذلك إلا بشـدة اتباعه له ﷺ ولهـم (عليهم السلام) ﴿فَمَـنْ تَبِعَـنِي فَإِنَّهُ مِني﴾ وهذا وسـام رفيع لم يحصّله أي من صحابة رسـول الله ﷺ المنتجبين مما يدل على علو ورفعة مكانة سـلمان، نعم قال الإمام الباقر (عليه السلام) لسـعد بن عبد الملك وهو أموي (أنت أموي منا أهل البيت أمـا سمعت قول الله يحكي عن إبراهيم ﴿فَمَنْ تَبِعَني فَإِنَّهُ مِني﴾ بينما يسـجل القرآن الكريم خسـارة أبي لهب (عم النبي) واستحقاقه لنار جهنم وذلك لخلافه وعدم اتباعه،

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري، ٣/٥٩٨.



ولله در من قال:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينــه

فلا تترك التقوى اتكالاً على الحسب

فقد زيَّن الإيمان سلمان فارس

وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب[١]



(١) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ٣/٣٦١.

المقالة السابعة عشر

أولاد الرسول

من الأمور التي أكد عليها القران الكريم الاهتمام بقرابة النبي ﷺ ففي البداية كانت الدعوة خاصة بهم ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] وآخر تلك الاهتمامات جعل مودتهم أجراً للرسالة فقال ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[2] وبين هذا وذاك النص في آية المباهلة أن نفس رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين عليه السلام والنساء هي فاطمة عليها السلام وأبناء النبي ﷺ هم الحسنان عليهما السلام، وقد دأبت الحكومات على إنكار كل ذلك، فقد ذكر الإمام علي عليه السلام بـ(أنا عبد الله وأخو رسول الله) فقالوا له (أما عبدالله فنعم وأما أخو رسول الله فلا)[3] وفي ذلك إنكار لأمر واضح طالما أكده رسول الله ﷺ والقرآن أكد على أنه نفس رسول الله ﷺ وهي مرتبة أعلى من مرتبة الأخوة التي أنكرها القوم، واستمر هذا الإنكار لأنه يخدم السياسة العامة ففي العهد الأموي انتشر بين الناس - والناس على دين ملوكهم - حتى قال الإمام الباقر عليه السلام لأبي الجارود (يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن و الحسين عليهما السلام؟» قلت:

---

(١) الشعراء /٢١٤.

(٢) الشورى /٢٣.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٢/٦٠.

ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ، قال: «فبأي شيء احتججتم عليهم؟» قلت: احتججنا عليهم بقول الله عز و جل في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَعِيسى﴾ فجعل عيسى بن مريم من ذرية نوح عليه السلام.قال: «فأي شيء قالوا لكم؟» قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد، و لا يكون من الصلب.قال: «فبأي شيء احتججتم عليهم؟» قلت: احتججنا عليهم بقوله تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ ثم قال: «أي شيء قالوا؟» قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل و آخر يقول: أبناءنا .قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأعطينكها من كتاب الله عز و جل أنهما من صلب رسول الله ﷺ لا يردها إلا كافر» . قلت: و أين ذلك، جعلت فداك؟قال: من حيث قال الله تعالى:(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وبَناتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ) الآية، إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى-: ﴿وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾ فسلهم يا أبا الجارود، هل كان يحل لرسول الله ﷺ نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا: نعم. كذبوا وفجروا، و إن قالوا: لا. فإنهما ابناه لصلبه)[1]، وفي نفس هذه الفترة

(١) جواهر الكلام، الشيخ الجواهري، ١٦/٩٤.

العصيبة (روي أنّ الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه أنّ يحيى بن يعمر يقول: إنّ الحسن والحسين عليهما السلام من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث إليه. وقال: أنت الذي تزعم أنّ الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لألقين الأكثر منك شعراً أو لتخرجنّ من ذلك، قال: فهو أماني إن خرجت؟ قال: نعم، قال يحيى: فإنّ الله جل ثناؤه يقول: ﴿وَوَهَبْنا لَه إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِه داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى﴾ قال وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمّد صلى الله عليه وآله، فقال له الحجاج: ما أراك إلّا قد خرجت، والله لقد قرأتها وما علمت بها قط)[1] ويستمر هذا الإنكار، ففي العهد العباسي سأل هارون الرشيد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام (كيف قلتم إنّا ذرية النبي والنبي صلى الله عليه وآله لم يعقب، وإنما العقب للذكر لا للأنثى وأنتم ولد لابنته ولا يكون لها عقب؟ فقلت: أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه إلاّ ما أعفيتني من هذه المسألة، فقال: لا، أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي وأنت يا موسى يعسوبهم و إمام زمانهم كذا انهي إلي ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله، و أنتم تدعون معشر ولد علي أنه

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٦/١٦٤.

لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف و لا واو إلا تأويله عندكم، واحتججتم بقوله عز و جل: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ واستغنيتم عن رأي العلماء و قياسهم، فقلت تأذن لي في الجواب؟ قال: هات، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى﴾ من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: إنما ألحق بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام، وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل أمنا فاطمة عليها السلام) وفي حوار آخر ثبت عليه السلام وراثتهم وعدم استحقاق بني العباس لتلك الوراثة التي كانت من أسس ملكهم فقد سأله الرشيد (فلم ادعيتم أنكم ورثتم رسول الله و العم يحجب ابن العم، و قبض رسول الله و قد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حي إلى أن قال فقلت: إن النبي لم يورث من لم يهاجر و لا أثبت له ولاية حتى يهاجر فقال: ما حجتك فيه؟ قلت: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَ الَّذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ وإن عمي العباس لم يهاجر فقال: إني سائلك يا موسى هل أفتيت بذلك أحدا من أعدائنا أم أخبرت أحدا من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟ فقلت: اللهم لا، وما سألني عنها إلا أمير المؤمنين)(١).

---

(١) الحدائق الناضرة، المحقق البحراني، ١٢/٤٠٠.

المقالة الثامنة عشر

فريضة الصوم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١)

أفرد المؤمنين بالنداء لأن العبادة لا تصح من غيرهم، فهم المأمورن بها لا غيرهم وفي هذا التكليف تشريف لأن لذة نداء المولى تُنسي عناء التكليف فأي شرف يداني شرف أن يكلم الله المؤمن ليأمره وينهاه وبهذا الأمر والنهي يوصله إلى مصالحه الواقعية ﴿كُتِبَ﴾، والكتابة تدل على الثبوت وهي أعم من الواجب وغيره، إلا أن القرائن تدل على الوجوب ﴿عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وهو في اللغة الإمساك المطلق، وفي الشريعة المقدسة وهو المطلوب هنا هو الإمساك عن المفطرات قربة إلى الله في شهر رمضان من أول الفجر إلى المغرب، وقد حددت الشريعة المقدسة المفطرات بعشرة أمور وأكثرها لصيقة بالإنسان وفي الاعتياد على تركها تقوية للإرادة فيفتح الطريق لترك غيرها مما هي غير ملصقة بالإنسان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وهذا من ألوان التخفيف فحتى لا يصعب هذا التكليف بنظر البعض يخبرهم ربهم بأن الأقوام السابقة قد كُلفت بذلك،

---

(١) البقرة/١٨٣.

فهـو تكليـف مقدور عليه والآية تدل على المشـابهة بأصل الواجـب لا في كل تفاصيلـه مـن كيفية ووقـت وعدد وغير ذلـك ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ﴾، كلمة (لعل) تفيد الترجي إذا كان المتكلـم غير الله سـبحانه أما في كلامـه فلا تدل على ذلك لأن الترجـي لا يليـق بجلاله، فأما أن تكـون مراعاة لحال المخاطبـين أو بداعي مطلوبية التقوى له سـبحانه وبيان أنهـا مـن الأمور الاختيارية وليسـت من الأمـورا لجبرية، وبالصوم يتوصل إلى التقوى وبهذا الوصول يتحقق كثير مـن النتائـج الطيبة في الدنيا والآخـرة خاصة أن الصيام لا يسـتغرق وقتـاً طويـلاً بل هـو ﴿أَيَّامًـا مَعْـدُودَاتٍ﴾ أي معـدودات وقلائل ومحصورة وهي بيان لفرض الصيام ثم بينـت هـذه الأيام القلائل فهي شـهر رمضـان المبارك وقد عفـى طبقتين من الناس ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِدَّةٌ مِـنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[١]، وواضـح أن الأيام الأُخر هي غـير شـهر رمضان وواضح أن ترك الصيـام في حال المرض والسـفر عزيمـة لا رخصة، نعـم وردت الترخيـص ﴿وَعَلَى الَّذِيـنَ يُطِيقُونَـهُ فِدْيَـةٌ طَعَـامُ مِسْكِينٍ﴾، وقـد عُد منهم الشـيخ والشـيخة والمرضعة القليلة اللبن والحامل المقرب وغيرهـم، هـذا هو الصيـام الواجب أما غـير الواجب فقد أشير إليه ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

(١) البقرة/١٨٤.

(٢) البقرة/ ١٨٤.

المقالة التاسعة عشر

وبالوالدين إحسانا

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾[1].

من دأب القرآن الكريم إذا أراد أن يشير إلى أهمية مسألة معينة أن يقرنها بمسألة واضحة الأهمية في أذهان المسلمين، مثل قرن الأرحام بتقوى الله سبحانه فنفهم من ذلك أهمية الأرحام وصلة الرحم يشتد الأمر به كلما كان الرحم أقرب، وعلى قمة ذلك الإحسان إلى الوالدين والذي قُرن في أربع مواضع في القرآن الكريم بعبادة الله سبحانه وهي محور كل الرسالات الإلهية وبذلك نعرف أهمية الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وكلمة (قضى) والتي تعني الأمر المحكم الذي لا نقاش فيه وقد لا نجد هذا التأكيد بكلمة (أمر) وهناك إطلاقين في الآية الكريمة

---

(١) الإسراء/٢٣.

منها إطلاق الوالدين ليشمل الأب والأم وبكل أحوالهم وإن كانوا كافرين، نعم يحرم إطاعتهم بمعصية الله سبحانه لكن المطلوب مصاحبتهما بالمعروف ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١)، والإطلاق الثاني هو إطلاق الإحسان ليشمل جميع أنواع الإحسان فلا يقتصر على نوع أو نوعين بل كل مصداق من مصاديق الإحسان مطلوبة وواجب تجاه الوالدين، نعم هما أو أحدهما قد يكون أشد حاجة إلى الإحسان إذا أخذت الشيخوخة منه مأخذاً كبيراً بحيث يصعب عليه الحركة والانتقال وغير ذلك مما يضاعف مسؤولية الأولاد فيحتاج إلى مضاعفة الإحسان المطلوب والصبر والمدارة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ (٢)وفي هذه الحالة وفي كل الأحوال يمنع ويحرم على الابن إظهار عدم الارتياح والتبرم والنفور ونفهم ذلك من حرمة ﴿أُف﴾ مما يستبطن ويستلزم أن يكون ما فوقها أولى بالحرمة والمنع لأن كل ما يدل على عدم الارتياح هو دون ﴿أُفٍّ﴾ ولو كان هناك ما هو أقل منها لحرّم ذلك الأقل ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ مما يدل على مكانة الأبوين في الإسلام ومع كل ذلك طلب

(١) العنكبوت /٨.

(٢)الإسراء/ ٢٣.



التواضـع بخفض الجناح والكلام معهـم بالكلمة الطيبة ﴿وَقُـلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًـا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَـةِ﴾ والوصيـة الأخـيرة أن يتوجـه الأولاد بالدعاء لآبائهـم وطلـب الرحمة جزاءً لتربيتهـم وبرهم بأولادهم ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ خصوصاً أن برّهم وتربيتهم في أول نشأة الطفل تحتاج إلى الكثير من التعب المدارة فمطلوب من الابن أن يُرجِع إلى الأبوين إحسانهما وخاصـة في كبرهما وكثرة حاجتهما وعـدم قدرتهما، وقد علّمنا الإمام السـجاد عليه السلام كيفية الدعاء للوالدين (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَهَابُهُمَا هَيْبَةَ السُّـلْطَانِ الْعَسُوفِ، وَأَبَرُّهُمَا بِرَّ الأُمِّ الـرَّؤُوفِ، وَاجْعَلْ طَاعَتِي لِوَالِدَيَّ وَبِرِّيْ بِهِمَا أَقَرَّ لِعَيْنِي مِنْ رَقْدَةِ الْوَسْنَانِ، وَأَثْلَجَ لِصَدْرِي مِنْ شَرْبَةِ الظَّمْآنِ حَتَّى أوثِرَ عَلَـى هَوَايَ هَوَاهُمَا وَأُقَـدِّمَ عَلَى رِضَايَ رِضَاهُمَا وَأَسْـتَكْثِرَ بِرَّهُمَا بِي وَإِنْ قَلَّ وَأَسْتَقِلَّ بِرِّي بِهِمَا وَإِنْ كَثُرَ. اللَّهُمَّ خَفِّضْ لَهُمَا صَوْتِي، وَأَطِبْ لَهُمَا كَلامِي، وَأَلِنْ لَهُمَا عَرِيْكَتِي، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمَا قَلْبِي، وَصَيِّرْنِي بِهِمَا رَفِيقاً، وَعَلَيْهِمَا شَفِيقاً. اللَّهُمَّ اشْـكُرْ لَهُمَا تَرْبِيَتِي وَأَثِبْهُمَا عَلَى تَكْرِمَتِي، وَاحْفَظْ لَهُمَا مَا حَفِظَـاهُ مِنِّي فِي صِغَـرِي. اللَّهُمَّ وَمَا مَسَّـهُمَا مِنِّي مِنْ أَذَىً أَوْ خَلَـصَ إلَيْهِمَـا عَنِّي مِنْ مَكْـرُوه أَوْ ضَاعَ قِبَلِـي لَهُمَا مِنْ حَـقٍّ فَاجْعَلْهُ حِطَّةً لِذُنُوبِهِمَا وَعُلُوّاً فِي دَرَجَاتِهِمَا وَزِيَادَةً فِي



حَسَـنَاتِهِمَا يَا مُبَدِّلَ السَّـيِّئاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ)[١] والعقـوق تـارة يكون عـن جهل وأخرى عن عمـد وكل ذلك يعلمه الله ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ويستطيع العاق أن يـؤوب إلى الله (بمعنـى الرجوع) فيكـون مؤهلاً لغفران الله ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

---

(١) رياض السـالكين في شـرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، السيد علي خان المدني الشيرازي، ٤/٣٨.

المقالة العشرون

الطريق إلى محبة الله

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[(١)]

يسوق أغلبية البشر السبب إلى معرفة الله وعبادته والاتصال به إما الخوف من النار والعذاب أو الطمع في النعيم والجنة، وهناك طريق ثالث لذلك، وهو طريق أقلية من البشر، طريق معرفة إنه سبحانه أهلاً لذلك بلا التفات إلى الجنة أو النار، بل هذا الالتفات نقص نعم أن الطريقين السابقين كافيان ومقبولان وإن كانا أقل من الدرجة الثالثة، وقد يسمى الطريق الثالث بـ(حب الله) ومعلوم أن منشأ الحب هو تصور جمال وكمال المحبوب، فإذا عرفنا إن الله سبحانه منزه عن كل نقص ومتصف بكل كمال فهو سبحانه مجمع الكمالات، فليس هناك كمال إلا اتصف بأكمله لذلك يصف القرآن المؤمنين بأنهم ﴿أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[(٢)] والإمام السجاد عليه السلام يقول وهو لسان المحبين (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً)[(٣)] والقرآن يضع كل ولاءات الإنسان في كفة وحب العبد لله في كفة أخرى وأراد من المسلم أن تكون كفة حب الله أرجح

---

(١) - آل عمران /٣١.

(٢) البقرة /١٦٥.

(٣) الصحيفة السجادية (ابطحي)، الإمام زين العابدين عليه السلام، ٤١٣.

مـن الكفة الأخرى ﴿قُـلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَـبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَأْتِـيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـقِينَ﴾ [1] ولاحظ أن آخـر الآية تهديد ووعيـد إذا اختـار أي مسـلم الولاءات الأخـرى وترك كفة حب الله ورسوله، وهي علامة من علامات الحب والملاحظة المهمة إن الآية تجمع بين حبين، حب الله وحب رسوله وفي الآيـة الكريمة (محـل البحث) تجعل اتباع رسـول الله ﷺ شـرط لمحبـة الله للعبـد المحـب له سـبحانه رغـم إن هذه المنزلـة عزيـزة ونادرة الوجود بين أبناء البشـر كما مر بنا، مع ذلك كله لا يبادل الله سـبحانه عبده المحب بمحبة إلا إذا توافـر على اتباع حبيبه وهو اتباع الوحي الإلهي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [2] ولذلك كانت طاعة الرسول ﷺ طاعة الله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [3] وإذا علمنـا مـن القرآن قائمـة بأسماء من يحبهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ﴾ [4] و ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [5] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [6] و﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) التوبة /٢٤.

(٢) النجم /٣.

(٣) النساء /٨٠.

(٤) البقرة /١٩٥.

(٥) البقرة /٢٢٢.

(٦) التوبة /٤.

يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١] و﴿إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢] إلى غير ذلك من العناوين وبالمقابل هناك قائمة بعناوين من لا يحبهم اللّه ﴿إِنَّ اللّه لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٣] و﴿اللّه لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[٤] و﴿إِنَّ اللّه لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[٥] و﴿اللّه لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٦] فعلى المسلم أن يكون محسنا توابا متطهرا متقيا متوكلا مقسطا لينال حب اللّه سبحانه ولا يكون معتديا أو كفارا أثيما أو ظالما وحتى يتحقق ذلك لا بد أن يكون المسلم متبعا للرسول صلى الله عليه وآله في كل ذلك، فيعرف بتلك المتابعة معنى الإحسان والتوبة والتطهر والتقوى والتوكل، أما قائمة من لا يحبهم اللّه فهم لم يتبعوا الرسول صلى الله عليه وآله ولو كانوا من أتباعه لما ظلموا أو اعتدوا أو كفروا لكنهم اتبعوا خطوات الشيطان أو الشهوات أو الهوى أو الظن أو سبيل المفسدين أو أمر كل جبار عنيد، وهؤلاء المتّبعُون قد نهى اللّه عن اتباعهم، نعم هناك اتباع لا يتعارض مع اتباعه صلى الله عليه وآله، مثل اتباع ملة إبراهيم الخليل عليه السلام أو سبيل المؤمنين أو اتباع ما أنزل اللّه سبحانه أو اتباع ما أمر اللّه ورسوله باتباعه مثل العترة الطاهرة وكل هذه

(١) آل عمران /١٥٩.

(٢) الممتحنة /٨.

(٣) البقرة /١٩٠.

(٤) البقرة /٢٧٦.

(٥) آل عمران /٣٢.

(٦) آل عمران /٥٧.

الطرق لا نعرفها إلا بتعريف رسـول الله صلى الله عليه وآله، والحاصل إن الإنسـان كل إنسان واقف على مفترق طريقين الأول اتباع مَـن أمـر الله باتباعه الذي يوصـل إلى محبة الله، والثاني اتباع من لم يأمر الله تعالى باتباعه بل نهى عنه ونتيجته الوصول إلى عدم محبته سبحانه وتعالى.



المقالة الحادية والعشرون

الذِبْح عَظِيم

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(١)

تختلط فريضة الحج بتاريخ الأنبياء عليهم السلام وخاصة خليل الرحمن عليه السلام فتأسيس مدينة مكة المكرمة وبناء البيت والسعي بين الصفا والمروة من مظاهر ذلك، ومنه ذبح الهدي في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة وهو من واجبات الحج فأنه يرتبط بحادثة تاريخية، فبعد مواجهة الطواغيت، يهاجر الخليل عليه السلام من بابل وهناك بعد تلك الهجرة يطلب من الله أن يرزقه ولداً إذ لم يكن له ولد وهو وزوجته كبار السن ومثلهم لا يولد لهم والولد بالنسبة إلى الوالدين امتداد وكل البشر يميلون بفطرتهم إلى هذا الامتداد، لكنه عليه السلام لم يطلب ولداً كيفما اتفق بل طلب ولدا صفته من ﴿الصَّالِحِينَ﴾ وهذا دأب الأنبياء والصلحاء في طلبهم الولد، فزكريا عليه السلام عندما يطلب الولد ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾(٢) فالابن إن لم يكن صالحاً وطيباً

(١) الصافات /١٠٢.

(٢) آل عمران /٣٨.

فقد يكون وبالاً على أهله، جاءت الاستجابة الإلهية لدعاء الخليل عليه السلام ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١) وهي ثلاث بشائر مرة واحدة، الأولى أنه سيرزق طفلا ذكراً وإن هذا الطفل يبلغ سن الفتوة ﴿غُلَامٍ﴾ والثالثة إن هذا الغلام يتصف بالحلم ﴿حَلِيمٍ﴾ ، وبعد تحقق هذه البشارة بل البشارات الإلهية يُؤمر الخليل عليه السلام بنقل هذا الطفل الذي بُشّر به وأمه إلى صحراء قاحلة جوار حرم الله ويفتح الطريق بهذا الانتقال إلى تأسيس مدينة مكة المكرمة وإعادة بناء بيت الله الحرام والذي سيبعث به حفيد الخليل وابنه عليه السلام في نفس هذه المدينة وإلى جوار البيت الحرام وما كان من الخليل عليه السلام إلا امتثال الأمر الإلهي بأبعاد زوجته وأبنه إلى وادي غير ذي زرع، وبعد مدة طويلة وضمن سلسلة الامتحانات الإلهية يؤمر بعد أن يبلغ ابنه إلى مرحلة عمرية ﴿بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ وهي المرحلة الذي يستطيع فيها السعي وبذل الجهد مع والده في مختلف أمور الحياة وإعانته عليه، وقد نصت الروايات على أن عمر الابن كان ثلاث عشرة عاماً في هذا السن الذي يكون الولد أحلى وأغلى ما يكون في نظر والده وخاصة إذا كان الوالد كبير السن وفي حالة شبه اليأس من الولد في هذا السن يرى الوالد رؤيا عجيبة - ورؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي- هذه الرؤيا تخبره بأنه مأمور بذبح ابنه وتتكرر هذه الرؤيا ثلاث مرات

---

(١) الصافات /١٠١.

ليلــة التروية وليلة عرفة وليلــة عيد الأضحى، فكان على أتم الاستعداد لتطبيق هذا الأمر الإلهي لكنه أراد أن يهيء ولــده له فهو لا يخدعه ولا يريد أن يأخذه لسـاحة الذبح بصـورة عمياء بل أراد أن يكـون ذلك بملء إرادته واختياره ويشركه في الامتثال للأمر الإلهي فقال ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فما كان من هذا الولد صاحب الثلاث عشرة سـنة إلا أن يقول ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فقد بدأ خطابه بكلمة ﴿يَا أَبَتِ﴾ كي يوضـح أن هـذه القضيــة (ذبح الوالد لولــده) لا تقلل من عاطفــة الابــن تجاه أبيــه ولو بمقدار ذرة مــا دام هذا الأب مأمور من قبل المولى سبحانه ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ومع ذلك إظهـار الأدب العبـودي الرفيع مع المولى سـبحانه فأنه لا يعتمـد علــى إيمانه وإرادتــه وتصميمه فقــط إنما يعتمد على الله ومشـيئته ويطلب توفيق الاسـتعانة ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ مِـنَ الصَّابِرِيـنَ﴾ وفعلاً استسـلما للامتحان الإلهــي فـكان الخليل عليه السلام ذابـح وابنه عليه السلام ذبيـح، عند ذلك جـاء النداء الإلهـي ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَـا إِبْرَاهِيمُ قَـدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَـا﴾ فقد فاز الوالد والولد بالامتحان الصعب وكانت النتيجـة ﴿وَفَدَيْنَـاهُ بِذِبْـحٍ عَظِيمٍ﴾ وخُلد هــذا الفداء في الشـريعة الإسـلامية فقـد أوجب المولى سـبحانه على كل حاج إن يذبح هدي في حج التمتع.

المقالة الثانية والعشرون

آثار الهجرة

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(١).

اضطر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنون معه إلى ترك مواطنهم ومألف نفوسهم رغم الارتباط القوي الذي يربط الإنسان بوطنه، لكن في الإسلام يجب أن تكون رابطة الدين أقوى وأهم من كل الروابط الأخرى، والهجرة هي قانون إلهي لكل حي يشعر بالخطر على حياته، لا يشذ عن ذلك حتى العجماوات فإذا أحست بالخطر الداهم تضطر لترك ديارها إلى حيث الأمن والأمان وبعض الطيور تقطع الآلاف من الكيلومترات في هذا السبيل، وفي الإسلام عندما يفرض الظلم والعدوان من قبل الأعداء على المسلمين بحيث لا يستطيعون ممارسة شعائرهم أو إعلان عقيدتهم أو العمل بوظيفتهم الشرعية يكون عند ذاك الدين أهم من كل الروابط الأخرى، وقد ركز القرآن

(١) النساء/ ١٠٠.

الكريم في موضوع الهجرة بتقييدها دائما أو على الأغلب بقيد (في سبيل الله) أو (في الله)، وهذا القيد مهم جدا لأنه جزء لا يتجزأ من الهجرة الممدوحة والممدوح أهلها وبدون هذا القيد لا مدح لها ولا لأهلها، وبكلمة أوضح إن الهجرة ليست مجرد انتقال من مكان إلى آخر بل هي مقيدة بقيد وجه الله لنصرة دينه وفراراً من الطغاة الذين ليس باستطاعة المسلمين مواجهتهم مواجهة نافعة، وقد علمنا رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[١] وأكد القران الكريم على ما قبل الهجرة من الإيمان وابتغاء مرضاة الله وتحمل الأذى وأكد على ما بعد الهجرة من النصرة وا لجهاد، وقد ورد الكثير عن النّبي ﷺ في فضل هذه الهجرة ومن ذلك: (من فر بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض، استوجب ا لجنّة و كان رفيق محمّد و إبراهيم عليهما السلام)[٢].لأنّ هذين النّبيين هما قادة وأئمّة مهاجري العالم فالخليل عليه السلام بعد نجاته من النار اختار الهجرة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[٣] ولوط عليه السلام كان تابعاً في ذلك ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى

---

(١) الصحيح، البخاري، ٢/١.

(٢) روح المعاني/ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، الآلوسى ١٢٦/٥.

(٣) الأنبياء /٧١.

رَبِّـي إِنَّـهُ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـمُ﴾[١] وأما خـاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله فلهجرته آثار كبيرة جداً والآية الكريمة تشير إلى قسمين مـن منافع هذه الهجـرة، الأول: النفع الدنيـوي فالمهاجر يرغـم أنـف عـدوه بالـتراب ويكون هو في سـعة مـن أمره وعليـه أن يتحرك ليبني نفسـه أولاً ويبني مجتمعه ثانياً بعـد ارتفاع الموانع عن ذلك، أما الثاني فنفع أخروي فمن يمـوت في طريق الهجـرة قبل أن يصـل إلى الأمن والأمان الـذي فيـه إرغـام أنـف العدو والسـعة لنفسـه فهـو ليس بخاسـر، لأن أجره يقع على الله سـبحانه مما يعني عظم هـذا الأجر وعـدم محدوديته خاصـة إذا لاحظنا أن الآية تنتهـي بالاسمـين الإلهيـين الكريمين (الغفـور، الرحيم)، عرفنـا أن المغفرة والرحمة الإلهية من اسـتحقاق المهاجر والتأريخ الإسـلامي يصـدق هذه الملحمـة القرآنية، فبعد الهجرة النبوية الشـريفة اسـتطاع الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يبني مجتمعاً إسلامياً بعيداً عن ضغط الطغاة والظلمة، واسـتطاع في فـترة وجيـزة أن يعبئ هذا المجتمـع لمواجهة أولئك الطغاة وكسـر شـوكتهم وإذلالهم حتـى وصل الذل إلى قعـر دورهم وقرارة نفوسـهم، فما أعظـم تلك النتائج الـتي تمخضـت عن الهجـرة المباركة وقد ظـل باب الهجرة مفتوحـاً إلى فتـح مكة فأغلـق حينها وبقى نـوع آخر من الهجـرة يكون صاحبها مهاجـراً وهو من هجر ما نهى الله عنه.

---

(١) العنكبوت /٢٦.

المقالة الثالثة والعشرون

النهاية التعيسة

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١]

تتحدث الآية الكريمة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة وما أكثر المشاهد الواردة في القرآن، ومن أهمها ذلك الحوار بين الأتباع والمتبوعين وبراءة كل من الآخر وفي الآية براءة الشيطان، والظاهر أنه إبليس اللعين لأن لفظ الشياطين قد أطلقت على غيره في أكثر من موضع لكن في هذا الموضع يشير إلى كبيرهم الذي سَنّ الإغواء والإغراء والغواية والإضلال لمن تبعه، ولا يمكن حمل الشيطان في الآية على أئمة الضلال لأن الآية السابقة تتحدث عن حوار بين الضعفاء والمستكبرين وبراءة كل منهما من الآخر ﴿وَبَرَزُوا اللَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

---

(١) إبراهيم /٢٢.

إِنَّـا كُنَّـا لَكُمْ تَبَعًا فَهَـلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِـنْ عَذَابِ اللَّه مِنْ شَـيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّه لَهَدَيْنَاكُمْ سَـوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَـا مَا لَنَـا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [1] فالآيـة الحاضرة تتحدث عـن حوار آخر وإن كان طـرف الأتباع الباطل محفوظ في كلا الحواريـن، وهـذا الحـوار بـين الشـيطان واتباعه ليس تكريماً له ولا لهم بل هو لون من ألوان التعذيب النفسـي إضافـة إلى العـذاب الحسـي الـذي هـم فيـه، فيـأذن الله للشـيطان وأتباعه بهـذا الحوار بـل ورد في بعض الروايات إن إبليـس يصعـد على منبر من نار ويخطب هذه الخطبة والملاحـظ أن الآيـة تبـدأ بفعل ماضي وهو (قـال) رغم أن هذا القول سـيكون مسـتقبلاً وذلك لحتمية وقوعه فكأنه واقـع والآية تحدد زمان هذا الوقوع وهـو ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ فُرِغَ﴾ من الأمر ودخل ا لجنان أهلها وأوصدت النيران على أهلها فيلوم المضلين حينها الضالين بل رأس الضلال لأنه سّـبب لهم هذه النهاية التعيسـة فيرجع الشـيطان الأكبر اللـوم عليهـم ويذكرهـم بوعدين، وعد حق صـدر من الله سـبحانه وهـو البعـث والنشـور والحسـاب وا لجنـة والنار ووعـد آخـر صدر من الشـيطان وهو لا بعث ولا نشـور ولا حسـاب ولا جنة ولا نار ولم يكن للشـيطان أي سـيطرة أو تسـلط على الإنسـان إلا أن يدعوه إلى هذا الوعد الباطل

---

(١) إبراهيم /٢٣.

فإن استجاب وترك الوعد الإلهي الحق فبسوء اختياره فعليه أن لا يلوم من دعاه بل عليه أن يلوم نفسه الذي استجابت لهذه الدعوة، وفي هذا دليل واضح على اختيار الإنسان وعدم جبره وقد جرت هذه الحقيقة الكبرى حتى على لسان إبليس اللعين، نعم هناك استثناء من عدم السلطان وهو الدعوة إلى المتابعة ولعل الاستثناء منقطع وعلى حد تعبير قرآني أخر ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1] والتولي هنا بمعنى الإطاعة والمتابعة ونهاية هذه المتابعة هذا اللوم المتبادل فكل طرف يُحمل الثاني المسؤولية وفوق ذلك أن كلا الطرفين لا ينفع الآخر عندما يستصرخه بمعنى يطلب منه الإغاثة وطلب المساعدة فلا الشيطان ينفع أتباعه ولا هم بنافعيه، ثم يعلن البراءة من أتباعه الذين أشركوا طاعته بطاعة المولى سبحانه فإن الطاعة بالأصالة لله سبحانه وبالتبع لمن أمر الله بطاعته من رسول أو إمام مفترض الطاعة اما من نهى الله عن طاعته كالشيطان وأئمة الضلال فطاعتهم معصية لله سبحانه.

---

(١) النحل /١٠٠.

المقالة الرابعة والعشرون

الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَالزِّلْزَالِ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[1]

بعض الناس يرى أن إظهار الإيمان بالله وحده وأداء بعض الواجبات كالصلاة والصوم كافٍ لدخولهم إلى الجنة ولذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمل الصعاب والمشاق ظانين أن الله سبحانه هو الكفيل بإصلاح أمورهم ودفع شر الأعداء عنهم وبلا مشقة وعناء منهم، والآية الكريمة تتحدث أن بعض المسلمين أيام نزول القرآن كان يرى هذا الرأي والآية الكريمة ترد على هذا الفهم الخاطئ وتشير إلى سنة إلهية دائمة في الحياة وهي أن المؤمنين ينبغي بل يجب عليهم أن يعدوا أنفسهم لمواجهة المشاق والمصاعب والتحديات على طريق الإيمان ليكون ذلك اختبارا لصدق إيمانهم من جهة ومن جهة أخرى لا يمكن الحصول على المقصود ولا الظفر بالمطلوب إلا

(١) البقرة /٢١٤.

بعد بذل غاية الجهد ولا يتحقق الانتصار إلا بعد الصبر والاصطبار ومقاساة الهموم والشدائد، ويستحيل أخذ النتائج والغايات إلا بعد تحصيل المقدمات وتهيئتها، ومن الطبيعي جدا إذا كان المقصود كبيرا وعظيما كبرت وعظمت مقدماته، والآية الكريمة تعتبر ذلك حُسبان ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ بمعنى الظن و﴿الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [1] والظن هو مجرد الوهم بلا تصور لخصوصيات الموضوع حتى يأخذ الراجح منها ومسألة دخول الجنة قد يدخل فيها الوهم بأن الطريق إلى ذلك مفروش بالورد وليس فيه من المخاطر شيء، فالجنة التي يوصفها المولى سبحانه ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [2] وقد قال الطبرسي عن هذين الوصفين (لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان)[3] والآية محل البحث تنهى المؤمنين عن الظن بدخول هذه الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ والمثل هو من الشيء وبيان نعوته التي توضحه وهنا هو الوصف الذي كان عليه من سبق من الأمم الماضية وفي ذلك تخفيف على الأمة أن ما يجري عليها

(١) يونس /٣٦.

(٢) الزخرف /٧١.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي فضل بن حسن، ٩/ ٨٦.

قد جرى مثله على سائر الأمم، فعليكم بالصبر والتحمل كما صبروا وتحملوا، ثم تصف الآية معاناتهم ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ ومستهم يعني لمستهم وأصابتهم وذاقوا شدائدها وأصابهم الضرر على مستويين، الأول ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ وهو الضرر في غير النفس كالفقر وغيره، والمستوى الثاني ﴿الضَّرَّاءُ﴾ وهو الضرر في نفس الإنسان كالمرض وا لجرح وغيرها وقد خاطب المولى هذه الأمة بـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1] والملاحظ إن البشارة في الآية للصابرين فقط لكن وحتى لا نتوهم بأن الضرر بسيط من السهولة تحمله يقول القرآن في حال الأمم السابقة ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ والزلزلة هو التحريك والخض والتقليب بمعنى حركوا بأنواع المحن والبلايا وتصل حالة الزلزلة إلى حد ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ يقولون ذلك لا يئسًا من النصر ولا اعتراضاً على المشيئة الإلهية، بل من باب الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه أو استعجالا للنصر الموعود، أو تثمينا للخلاص من الشدائد والمحن، أو رغبة في إظهار دين الله على الأعداء، وبعد هذا التضرع والدعاء يأتيهم الجواب الإلهي القاطع ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ والمجيب هو أما

---

(١) البقرة /١٥٥.

الرسـول عن طريق الوحي أو عن طريق حسـن الظن بالله أو يكـون المجيـب هو نفس الداعـي والمتضـرع وفيه دلالة علـى إن تمـني النصر عـن تناهي الشـدة لا يكـون منافيا للشـكر والتسـلم والرضا بالقضاء هذا أولاً وثانيا أن عند شـدة البـلاء يكـون النصـر فعـن النـبي ﷺ:(عنـد تناهي الشدة يكون الفرج)[١] وكما وكانت الآية حين نزولها تسلية للرسـول ﷺ والمؤمنـين علـى ما كانوا يلاقونـه من جبهة الكفر من صروف البلاء وأنواع الأذى فهي نفسـها تسـلية لأتبـاع النبي ﷺ وآل النبي عليهم السلام مـن بعدهم لما يلاقونه من أنواع المحن خاصة في زمن غيبة الإمام عجل الله فرجه وانتظار الفرج.

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، ٢٥٨/٢.

المقالة الخامسة والعشرون

أسباب النصر والهزيمة

﴿لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(١)

لما رجع النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه من معركة أحد، وقد خلفوا سبعين شهيداً قال قوم منهم: من أين أصابنا هذا، و قد وعدنا الله النّصر؟! فنزلت الآية والتي يستشف من بدايتها أن هناك وعداً إلهياً للمسلمين بالنصر وهذا الوعد إما أن يكون عاماً بالنصر على الكافرين أو خاصاً بهذه المعركة، فقد وعدهم ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٢) والملاحظ أن هذا الوعد مشروط بالصبر والتقوى، والمولى سبحانه وفى بوعده بالنصر عندما كان شرطه موجوداً وهو الصبر والتقوى، فوصل المسلمون إلى مرحلة (تحسونهم) بمعنى إبطال حسهم باستئصالهم وذلك بقتلهم قتلاً ذريعاً وهذا الاستئصال كان بإذن الله



---

(١) آل عمران /١٥٢.

(٢) آل عمران /١٢٥.

سبحانه، بمعنى بأمره أو بعلمه أو بقضائه، وهذه من أجلّ نعم الله على المؤمنين، وفي هذا دلالة واضحة على الانتصار الكبير الذي حازه المسلمون في بداية معركة أُحد تحقيقاً للوعد الإلهي بسبب توافر أسباب الانتصار من الصبر والتقوى الذي يؤدي إلى الثبات في الميدان، واستمر هذا الحال حتى انتفت هذه الشروط بأن ظهرت أسباب الهزيمة وهي حسب ذكرها في الآية، وهي مترابطة واقعاً فكل واحد منها يكون سببا للآخر، والكل سبب للهزيمة:

١- الفشل ﴿فَشِلْتُم﴾ وقد فُسر بالضعف مع الجبن أو بضعف الرأي وهو أول الوهن في الجيش وإن كان منتصراً على عدوه فضلا عن الجيش الذي يبدأ بالمعركة ولا يدري لمن الانتصار له أم لعدوه؟

٢- ﴿تَنَازَعْتُم﴾ التنازع هو التخاصم وقد نهى القرآن مطلقا عن التنازع وذكر أنه سبب للفشل وذهاب الريح ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1] والمنهي عنه هو التخاصم سواء كان الإنسان هو الذي بدأه أو جُر إليه فهو منهي عنه عند الحالين معا وقد أمر الله المؤمنين في حالة التنازع في شيء بـ ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[2].

(١) الأنفال /٤٦.

(٢) النساء /٥٩.

٣- العصيان ﴿عَصَيْتُم﴾ والمعصية هنا هي مخالفة القيادة المعصومة في تنفيذ أوامرها بالدقة وعدم التصرف إلا وفقها وإلا يتبدل النصر وتحل الهزيمة، والعجيب أن هذا العصيان جاء من الأكثرية وهو ظاهر من نسبته لجميع المخاطبين وقد حدد القرآن توقيت العصيان ﴿مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ﴾ من النصر فكان الأولى بهم أن يلاقوا هذا النصر بالطاعة لا بالمعصية لكنهم عصوا الرسول صلى الله عليه وآله فكان ما كان.

٤-حب الدنيا ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ﴾ هذا إخبار بانقسام المسلمين يؤمئذ إلى طلاب دنيا وطلاب آخرة، وهذا من مختصات القرآن الكريم، فكل متحدث عن هذه المعركة بل كل المعارك والأحداث يصور الأحداث الخارجية لها، أما بواطن النفوس والنوايا ودوافع الأعمال، فهي من مختصات علاّم الغيوب، ولهذا العنصر دور كبير في الهزيمة العسكرية لأنه يؤدي إلى عصيان القيادة المعصومة وترك التطبيق الحرفي لتوصياتها، وهذا بدوره يؤدي إلى التخاصم مع من يؤثر الآخرة على الدنيا ويختار الطاعة على المعصية، وفي هذا التخاصم وا لجدال الفشل وذهاب الريح وهو ذهاب العزة والدولة والغلبة، ومن هنا يعلم أن الوعد الإلهي بالنصر مشروط، فإذا تخلف الشرط تخلف المشروط، وأن من الخطأ الفادح

أن يتصور المسلم أن الوعد الإلهي بالنصر مطلقا بلا قيد ولا شرط، ويتوهم من يظن أن النصر منحة إلهية خالصة للمؤمنين دون أن يقوموا بوظيفتهم الشرعية من العدة والعدد والاستعداد للحرب والفداء وإيثار الآخرة على الدنيا وإطاعة القيادة المعصومة.

المقالة السادسة والعشرون

العزة والمكر

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1].

تتحدث الآية الكريمة عن مطلبين الأول: أن طريق العزة ينحصر في طريق واحد وهو طلبها من مالكها (وهو الله سبحانه) وذلك بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح، والمطلب الثاني: هو ما يختص بنتائج المكر وهل ينتفع به أهله أم لا؟ ومعنى العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، مثل قولهم أرض عزاز أي صلبة، فالصلابة هو أصل العزة ثم توسع فاستعمل فيمن يقهر ويغلب ولا يُغلب وهذا المعنى مختص بالله سبحانه إذ كل شيء غيره تعالى محتاج وفقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئا إلا أن يشمله الله بلطفه ويؤتيه شيئا من العزة كما في قوله تعالى ﴿والله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] يقول الإمام الصادق عليه السلام (من أراد عزا بلا عشيرة، وغنى بلا

(١) فاطر /١٠.

(٢) المنافقون /٨.

مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته)[١] وآية البحث لا تريد أن تقول أن طالب العزة يطلب المحال بل تحدد الآية الطريق لتحصيل العزة وهو طريق وحيد وهي الارتباط بمالكها ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [٢] فمن يطلبها من غيره سبحانه كعبدة غيره وأحد أسباب هذه العبادة ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٣] فهو طلب للعزة من غير مالكها ونتيجة ذلك أنهم لا يحصلون على شيء من العزة من آلهة لا تملك عزة لنفسها فضلاً عن غيرها وتكون النتيجة ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [٤] ومن الطرق الخاطئة الأخرى طلب ذلك من الجبابرة الطغاة ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [٥] وطريق آخر وهو خاطئ أن يطلب المنافق العزة من موالاة الكافرين والقرآن يرد على ذلك ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [٦] بل تصل حالة رأس النفاق (عبد الله بن أبي سلول) أن لا يرى نفسه عزيزا فقط بل يرى نفسه الأعز مقابل توصيفه لرسول الله ﷺ بالأذل، وقد رد القرآن على هذه الدعوى بأن العزة لله بالأصالة وللرسول وللمؤمنين

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٦٨/١٧٨.

(٢) فاطر /١٠.

(٣) مريم /٨٢.

(٤) مريم /٨٢.

(٥) الشعراء /٤٤.

(٦) النساء /١٣٩.

بالتبعية فلم يبق للكافرين وللمنافقين شيء منها، وعلى كل حال فطريق تحصيل العزة تحدده الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أولا و﴿الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ والكلم الطيب هو الاعتقادات الحقة التي يسعد الإنسان باعتقاده بها والعمل وفق هذا الاعتقاد وعلى رأس هذه الاعتقادات عقيدة التوحيد والتي تتفرع عنها كل عقيدة حقة ويكون ثمرة الاعتقاد الحق هو العمل الصالح وهو بدوره يرفع الاعتقاد الحق إلى الله سبحانه وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله على طريقة هذا الرفع (إن لكل قول مصداقا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا قال ابن آدم وصدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله، وإذا قال وخالف عمله قوله، رد قوله على عمله الخبيث وهوي به إلى النار)[1] وأوحى الله سبحانه لنبيه داود عليه السلام (وضعت العز في طاعتي وهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه)[2] والآية تنص في شطرها الثاني عن أسلوب آخر سلكته قريش ويسلكها غير قريش لاكتساب العزة وهو أنواع المكر والحيل للوصول إلى مطلبهم، وقد سلكت هذا الطريق الأمم الماضية ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[3] لكنهم لا يعرفون هذه الحقيقة الكبرى ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وكان

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٦٤/٦٦.

(٢) نفس المصدر ٤٥٣/٧٥.

(٣) الرعد/٤٢.

نتيجة هذه الغفلة ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾[١] فأبطل كيدهم، وأفسد مكرهم من حيث لا يتوقعون، وذلك بهدم القاعدة وسقوط السقف ومن النتائج الأخرى للمكر ﴿فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢] ومن عجيب النتائج ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[٣] والآية محل البحث تذكر نتيجة أخرى وهي البوار وهو شدة الكساد الباعثة على الفساد، والملاحظ أن هذه النتائج لا تدل على ضآلة المكر وبساطته بل يصفه القرآن ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾[٤] ومن حيث الوقت مستمر ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[٥] وكبير بحيث ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[٦] لكن بما أن الذي يصد هذا المكر هو الله سبحانه وهو ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٧] و﴿لَهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[٨] ومعنى ذلك أن الله سبحانه هو العالم

---

(١) النحل/٢٦.

(٢) النحل/٤٥-٤٧.

(٣) فاطر/٤٣.

(٤) نوح /٢٢.

(٥) سبأ/٣٣.

(٦) أبراهيم/٤٦.

(٧) ال عمران/٥٤.

(٨) الرعد /٤٢.

بمخططات الأعداء أولا وهو القادر على صدها وردها ثانيا فطريق الخلاص منها أن يفوض الإنسان أمره إلى الله بقول الإمام الصادق (وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١] فاني سمعت الله يعقبها ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها)[٢] لكن هذا التفويض لا يعني أن لا يعمل الإنسان بوظيفته الشرعية بل لا بد من الاثنين معاً.



---

(١) غافر /٤٤.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٦٨/١٢١.

المقالة السابعة والعشرون

أوامر للمقاتلين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١)

تكرر جملة ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ في القرآن ثلاث مرات، تحدثت مرتين عن لقاء الذين كفروا ومرة واحدة تحدثت عن لقاء ﴿فِئَةً﴾ وهي أعم ان تكون كافرة أو لا، لكنها على كل حال مقاتلة وعلى كل فإن لقاء العدو حتمي ولابد منه وعلى الإنسان أن يتهيأ لذلك ويجب عليه معرفة وظيفته الشرعية قبل المواجهة حتى يكون عاملاً بها في أثنائها والمطلوب منه:

أولاً: الثبات ﴿فَاثْبُتُوا﴾ والثبات ضد الزوال فهو هنا ضد الفرار من العدو والذي هو من أكبر الكبائر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ

(١) الانفال /٤٥-٤٦.

وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ (١) فقد أوعد على عدم الثبات بالغضب الإلهي والعذاب الأليم الدائم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فيكون الثبات علامة الإيمان الكامل والفرار علامة عدم تكامله إن لم يكن من علامات عدم الإيمان والنفاق.

ثانياً: الذكر ﴿وَاذْكُرُوا اللّٰه كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والذكر المطلوب - مع ملاحظة كثرته ودوامه- هنا إضافة إلى الذكر اللساني أن يعلم المجاهد أن سنده في القتال هو اللّٰه سبحانه وإن النصر من عنده وحده وهذا ما يفقده الطرف الآخر، وهذا الذكر يؤدي إلى نسيان كل علاقات الإنسان وتركها وراء ظهره والاهتمام بالولاء للّٰه سبحانه ولدينه ونتيجة ذلك أحد الحسنين إما النصر أو الشهادة.

ثالثا: طاعة القيادة ﴿وَأَطِيعُوا اللّٰه وَرَسُولَهُ﴾ وهذا العنصر من أهم عوامل كسب النصر والوصول إلى الفتح وقد عاش المسلمون النصر في غزوة بدر لالتزامهم بهذا وحين لم يلتزموا به في غزوة أحد ذاقوا طعم الهزيمة العسكرية ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ (٢).

رابعاً: وحدة الصف أمام العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ فإن النزاع وهو الفرقة بين أبناء الأمة أو طوائفها مدعاة

---

(١) الأنفال / ١٥- ١٦.

(٢) آل عمران/١٥٢.

إلى الضعف الذي يمكن العدو من صاحبه ولذلك رتب القرآن الفشل على التنازع بفاء التقريع ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ فكأن الفشل نتيجة حتمية للفرقة سواء بدأ المجاهد بهذا النزاع أو أنجر إليه من قبل الآخرين، ومن النتائج المضافة إلى الفشل ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وهو ذهاب العزة والدولة وبذهابها تذهب الغلبة على العدو وتحل الهزيمة.

خامساً: الصبر ﴿وَاصْبِرُوا﴾ لأن القتال يحتاج إلى الصبر ففيه الكثير مما يكرهه المؤمن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)] وقد عدد القرآن مصاعب مواجهة العدو ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾[(٢)] ولا يظن ظان إن هاهنا تكرار للثبات الذي ذُكر في أول الآية لأن الصبر أوسع من الثبات لأن المجاهد يحتاج للثبات في المعركة فقط لكنه يحتاج للصبر فيها وقبلها وبعدها وقد حدد القرآن الكريم مجالات الصبر ﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

(١) البقرة/ ٢١٦.

(٢) التوبة/ ١٢٠.

وَأُولَئِـكَ هُمُ الْمُتَّقُـونَ﴾[١] وقد وعد الصابرين في نهاية هذه الآية بوصفهم بالصدق والتقوى، وللصبر آثار أخرى مثل معية المولى سبحانه ﴿إِنَّ اللّه مَـعَ الصَّابِرِينَ﴾ فهو معهم في نصره وتأييده وقيمومته وبشّرهم في قول آخر ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿ﷻ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا اللّه وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُونَ ﴿ﷻ﴾ أُولَئِـكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ) وفـوق ذلـك اسـتحقاقهم للحب الإلهي (واللّه يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

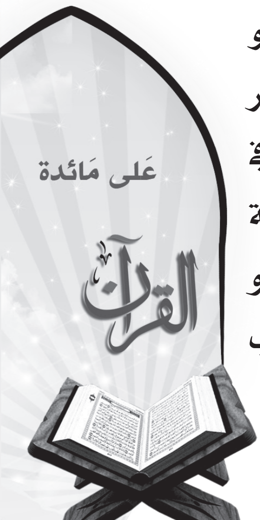
(١) البقرة /١٧٧.

المقالة الثامنة والعشرون

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

ذكر هذا المعنى ثلاث مرات في ثلاث سور هي سورة التوبة وسورة الفتح وسورة الصف، ويختلف ذيل آية الفتح عن الآيتين ففيها ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ وفي الآيتين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ مما يدل على مضي الإرادة الإلهية رغم كراهة أعداء الاسلام لذلك، وإلا ففي البقية تمام المطابقة، وهذا التكرار يدل على أهمية هذا المضمون فالله سبحانه يؤكد في الآيات الثلاث على ربانية الرسالة أولا وحتمية فوزها وغلبتها ثانيا، وفي لعلها البيان وصف لمضمون الرسالة ومحتواها فتبدأ الآيات الثلاث بضمير الغائب (هو) العائد الى الله سبحانه وتثنى باسم الموصول (الَّذِي) وهو عائد الى المولى سبحانه أيضا مما يدل على حصر وقصر الإرسال ونتيجته بالله سبحانه وليس لغيره مدخلية في ذلك فهو لا غيره ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ مما يدل على ربانية الرسالة ومصدرها الإلهي فليس مصدرها عبقرية فذة أو ذهنية سبقت مجتمعها أو غير ذلك، بل هو اتصال برب



العالمين وهو فعل من أفعاله تعالى ويصف محتوى هذه الرسالة ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهي الدلائل الواضحة ومطابقة الواقع في كل الاعتقادات والأحكام مما يستدعي قبول الناس لهذه الدعوة، وعلل المولى هذا الإرسال وبهذا المحتوى بـ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ومعنى الظهور تارة الاطلاع والإعلام مثل ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ وتأتي بمعنى آخر وهو الغلبة بالحجة والبرهان أو السيطرة والغلبة الظاهرية وللمفسرين رأيان في عود الهاء في (ليظهره):

- ❖ تعود الى المرسَل صلى الله عليه وآله فيظهر على كل الأديان.
- ❖ يعود إلى الهدى ودين الحق فيظهر على كل الأديان.

ويكون على المعنى الثاني عهداً إلهياً بأن هذا الدين الإلهي سيغلب إما بمنطقه و حجته على كل الأديان أو تكون له الغلبة على كل الأديان وبكل صورها كما يستفاد من إطلاق الإظهار وعدم تقييده بشيء، وهذا ما لم يتحقق لحد الآن ومما يؤكد ذلك أن الروايات عن المعصومين عليهم السلام تؤكد حصول ذلك بعد قيام الإمام المهدي عجل الله فرجه يكون ذلك مما يفتح مجالاً بقبول رجوع الهاء في (ليظهره) على المرسَل باعتبار أن حفيده الحادي عشر يمثله صلى الله عليه وآله بل هو نفسه فانتصاره عليه السلام انتصار لرسول الله صلى الله عليه وآله.

المقالة التاسعة والعشرون

طاعتان وطاعتان

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[١].

من يقرأ القرآن الكريم يرى اهتماما كبيرا لمسألة العلم ووجوب تحصيله والحث عليه وجعله الهدف من بعثة الأنبياء عليهم السلام والهدف من نزول القرآن ومن ذلك الاهتمام بمصادر المعرفة من حس وتجربة وعقل وآثار تاريخية وفطرة ووحي سماوي، واهتم القرآن أيضا بموانع المعرفة وهي موضوع في غاية الأهمية لأن معرفتها طريق لإزالتها للوصول إلى الحقائق وهذه الموانع بدورها تنقسم إلى قسمين، داخلية تنبع من شخصية الفرد مثل الهوى والذنوب، وأخرى خارجية مثل الأعلام وأصدقاء السوء ووساوس الشياطين، ومن ذلك اتباع أئمة الكفر أو أئمة

---

(١) االاحزاب/ ٦٤ -٦٨.

الضلالة والذي يكون نتيجة ذلك الاتباع استحقاق اللعن ﴿إِنَّ اللَّه لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أن طردهم وأبعدهم عن رحمته وفوق ذلك ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، والإعداد هو التهيئة والسعير هي النار التي أشعلت فالتهبت وهل هناك خلاص من هذه النار؟ فيأتي ا لجواب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وفي تلك الحالة تنقطع الروابط التي كانت في الدنيا بينهم وبين غيرهم من رؤساء وغيرهم فـ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ والولي هو الذي يتولى أمر المولى عليه وهو بمعزل عن الأمر بخلاف النصيرفهو معاون وشريك في أمر من ينصره فلا يجد أي لون من ألوان الارتباط، ثم يبين جزءا آخر من عذابهم الأليم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ وهذا التقلب إما أن يكون في لون البشرة فتسودّ مرة وتحمرّ أخرى، ومعنى آخر للتقلب أن تتقلب الوجوه في النار حتى تصل إلى كل جوانب الوجه كما يُفعل بالشواء، وبعد هذا التقلب يتحسرون ويندمون ويقولون ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّه وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ إذ لو أطاعوهما لما وصلوا لهذه الحالة من العذاب لكن لماذا لم يوفقوا الى تلك الطاعة المنجية من ذلك العذاب؟ يأتي جوابهم هم عن ذلك بأنهم استبدلوا تلك الطاعتين بطاعتين غير مأمور بهما بل منهي عنهما ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ والسادة هم الحكام والكبار

هـم إمـا كبار السـن في المجتمع أو الكبار مـن ناحية المركز الاجتماعـي، وينتج عن هاتين الطاعتين مباشـرة أضلالا للتابع لهم عن سـبيل الحق ﴿فَأَضَلُّونَا السَّـبِيلا﴾ وتنتهي علاقـة الطاعـة هـذه يـوم القيامـة إلى أن يدعـو المطيـع علـى من أطاعه ﴿رَبَّنَـا آتِهِـمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَـذَابِ﴾ فهم مسـتحقون عذاب لضلالهم أنفسـهم ومسـتحقون عذاب آخـر لإضلالهـم الآخريـن ﴿وَالْعَنْهُـمْ لَعْنًـا كَبِـيرًا﴾ وهو الطـرد مـن الرحمـة الإلهيـة بل الزيـادة في ذلـك، وقد رد القـرآن الكريم سـؤالهم بمضاعفـة العذاب ﴿لِـكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِـنْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فالأتباع مسـتحقون الضعف لأنهم ضلـوا أنفسـهم وأعانوا المتبوعين علـى ضلالهم، وفي آيات أخرى تتحول علاقة الطاعة إلى براءة أحدهما من الآخر فعندمـا يرون العـذاب ﴿إِذْ تَـبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِـنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَـذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْـبَابُ﴾[2]، ويتمنى الأتبـاع الرجـوع إلى الدنيـا لإعـلان البراءة من الرؤسـاء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّـا﴾[3]، ومع هذه الـبراءة لكل يكفّر صاحبه ويلعنه ﴿ثُمَّ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُـمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَـنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا

---

(١) الأعراف/ ٣٨.

(٢) البقرة/ ١٦٦.

(٣) البقرة/ ١٦٧.

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[١]، فالآيات الكريمات وإن كانت تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة إلا أن ذلك لا يمنع من أخذ الدرس والعبرة منه، فعلى العاقل أن يفكر من أي الصنفين هو، هل هو من صنف من أطاع الله والرسول فيكون ناجيا أم من ضعف من ترك هاتين الطاعتين وأبدلهما بطاعة السادة والكبراء من أئمة الضلال وأتباعهم.

(١) العنكبوت/ ٢٥.

المقالة الثلاثون

التخاصم

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

من الأدلة العقلية على المعاد هو برهان العدالة والتي لا تتحقق غالبا في هذه الدنيا إذا جمعنا هذا مع صفة العدل الإلهي وجب أن يكون هناك يوم ينتصف للمظلوم من الظالم ويؤخذ له بحقه وما أكثر الظلم في الدنيا بين أبناء البشر، وقد أشار القرآن الكريم لهذا الدليل ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[١] و ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢]، وغيرها التي تذكر المقابلة بين المؤمنين الذين يعملون الصالحات والمفسدين وبين المتقين والفجار وبين المسلمين وا لمجرمين، والآيتان الكريمتان تجري هذا المجرى وتخبر أن الخصومة بين النبي صلى الله عليه وآله وأعدائه مستمرة إلى الموت وبعد الموت وهناك عند الله (الحاكم العادل) تكون المحكمة بين الخصوم وتبدأ الآيتان بأن الموت محتوم على طرفي التخاصم فلا معنى

---

(١) ص، ٢٨.

(٢) القلم/ ٣٥-٣٦.

والحال هذه أن ينتظر الخصم موت خصمه ويشمت بذلك ولعله يموت قبل خصمه كما قتل عتاة قريش في غزوة بدر وعلى كل حال هو لاحق به إن لم يكن سابقاً، فكل حي وإن طالت حياته هو في عداد الموتى فليس من العقل ما كان يتمناه كفار قريش ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[1] وعلى كل حال ففي الآيتين تحذير من الآخرة وحث على العمل الصالح وتبدأ بالأخبار عن موت الكل، لكن الفرق كبير بين من يموت ويلقى الله وهو راض عنه، وبين من يلقاه وهو ساخط عليه، وتبدأ الآيتين بـ ﴿إِنَّكَ مَيِّت﴾ وهو خطاب لرسول الله ﷺ و﴿مَيِّتٌ﴾ صفة مشبهة تدل على الثبوت وهي هنا تعني ثبوت الموت حتى لحبيب الله ﷺ، فكان على الناس أن يستثمروا حياته الشريفة ما دام حيا للاستفادة القصوى من نبع العلم ومعلم البشرية والسراج المنير وفي الوقت نفسه ﴿إِنَّهُمْ مَيِّتُون﴾ وهل ينتهي الأمر عند موت الطرفين وهو أمر حتمي لا بد عنه؟! الجواب كلا، بل تبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة التخاصم وهو رد كل من الخصمين ما يأتي به الآخر على وجه الإنكار عليه ورميه بالكذب والباطل فيخاصم النبي ﷺ أعداءه بأنه بلغ رسالات ربه ونصح أمته وأجهد نفسه بالنصح والبلاغ ولم يقابل إلا بالتكذيب والعناد والأعداء من جانبهم يحاولون الاعتذار بتقليد الآباء وغيرهم من الأعذار غير

(١) - الطور-٣٠.

المقبولـة مما لا يعفيهم من المسـؤولية والعقاب، والمهم في المسألة هل يتعدى مضمون الآيتين إلى كل متخاصمين في الدنيـا، الظاهر من أكثر المفسـرين ذلك، فقد ذكروا أمثلة كثيرة للتخاصم ليس أحد طرفيها النبي ﷺ مثل الظالم والمظلـوم وا لمحقـق والمبطـل والمهتدي والضـال والضعيف والمسـتكبر والأمـير ا لجائر وا لجـار مع جاره وحتى الشـاة الناطحـة مع المنطوحة بل واختصام المؤمنين بعضهم مع بعض فعن أبى سـعيد الخدري رضي الله عنه قال:﴿ لما نزلت ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ كنا نقول ربنا واحد و ديننا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين و شـد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا)[١] وعن ابن عمـر (لقـد لبثنا برهة من دهرنا و نحن نرى أن هذه الآية نزلـت فينا و في أهـل الكتابين من قبل ﴿ إِنَّـكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُـونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُـمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قلنا : كيف نختصم و نبينا واحد و كتابنا واحد حتى رأيت بعضنـا يضـرب وجـوه بعض بالسـيف فعرفت أنهـا نـزلت فينـا، و في روايـة أخرى عنه بلفظ نزلـت علينا الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُـمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ وما ندري فيم نزلت قلنا : ليس بيننا خصومة فما التخاصم حتى وقعت الفتنة فقلت: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه)[٢].

---

(١) الدر المنثور في تفسير المأثور، السيوطى جلال الدين، ٥/ ٣٢٨.

(٢) روح المعانـي في تفسـير القرآن العظيم، الآلوسـى سـيد محمود، ١٢/ ٢٥٤.

المصادر بعد القران الكريم

١ - زبدة البيان في أحكام القرآن، المحقق الأردبيلي، ت ٩٩٣، تحقيق: تحقيق وتعليق: محمد الباقر البهبودي، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية - طهران.

٢- مستدرك سفينة البحار،المؤلف: الشيخ علي النمازي الشاهرودي، ت ١٤٠٥، تحقيق: تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي، ١٤١٩، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٣- البرهان في تفسير القرآن، البحرانى سيد هاشم، الناشر: مؤسسة البعثة،طهران،١٤١٦.

٤- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبايى سيد محمد حسين، الناشر: دفتر انتشارات اسلامى جامعهى مدرسين حوزه علميه قم، قم،: ١٤١٧.

٥- نهج البلاغة، شرح: الشيخ محمد عبده، ط١، ١٤١٢، المطبعة: النهضة - قم،الناشر: دار الذخائر - قم - ايران.



٦- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١،تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي،ط٣، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م،الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٧- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ت ١٣٥٩،تحقيق: تعريب: السيد محمد رضا النوري النجفي،ط٣، ٢٠٠٦م، المطبعة: البعثة - قم، الناشر: مكتبة العزيزي - قم.

٨- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ت ١٤٠٠،ط١٩٨١،٣ ،المطبعة: دار العلم للملايين، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.

٩ - تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ت ١١١٢، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي،ط٤، ١٤١٢ -المطبعة: مؤسسة إسماعيليان، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع -

١٠- إحياء علوم الدين،الغزالي،ت٥٠٥،الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

١١ - التفسير الأصفى،الفيض الكاشاني،ت ١٠٩١، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية،ط١، ١٤١٨، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي



١٢ - جامع السعادات، ملا محمد مهدي النراقي، ت١٢٠٩، تحقيق: تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر/ تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، المطبعة: مطبعة النعمان - النجف الأشرف، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر.

١٣- الغدير، الشيخ الأميني، ت،١٣٩٢، ط٤، سنة الطبع: ١٣٩٧ - ١٩٧٧ م، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

١٤ - الوافي، الفيض الكاشاني، ت ١٠٩١، تحقيق: ضياء الدين الحسيني العلامة الأصفهاني،ط١، سنة الطبع: ١٤٠٦ هـ. ق، المطبعة: طباعة نشاط أصفهان، الناشر: مكتبة الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة - أصفهان.

١٥ - المصنف،ابن أبي شيبة الكوفي، ت ٢٣٥،تحقيق: سعيد اللحام،ط١، سنة الطبع: ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

١٦ - أوائل المقالات،الشيخ المفيد،ت ٤١٣،تحقيق: الشيخ إبراهيم الأنصاري،ط١٤١٤،٢ - ١٩٩٣ م،الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

١٧- كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه،ت ٣٦٧، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، لجنة التحقيق، ط١،سنة الطبع: عيد الغدير ١٤١٧،المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي،الناشر: مؤسسة نشر الفقاهة.

١٨-مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني، ت ١١٠٧، تحقيق: مؤسسة المعارف الإسلامية بإشراف الشيخ عزة الله المولائي،ط١،١٤١٤، المطبعة: حافظ،الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم - ايران.

١٩ - الأمالي، الشيخ الطوسي، ت ٤٦٠، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، ط١،،١٤١٤الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - قم.

٢٠-: مسند الإمام علي عليه السلام، السيد حسن القبانجي، تحقيق: التحقيق: الشيخ طاهر السلامي، ط١، سنة الطبع: ١٤٢١ - ٢٠٠٠ م، المطبعة: الأعلمي، الناشر: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان.

٢١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام الشيخ الصدوق، ت ٣٨١، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي،سنة الطبع: ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م،المطبعة: مطابع مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.



٢٢- المستدرك، الحاكم النيسابوري، ت ٤٠٥،تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

٢٣ - أعيان الشيعة،السيد محسن الأمين، ت ١٣٧١، تحقيق وتخريج: حسن الأمين،الناشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان.

٢٤ - جواهر الكلام، الشيخ الجواهري، ت ١٢٦٦، تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القواني،ط٢، سنة الطبع: ١٣٦٥ ش، المطبعة: خورشيد، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.

٢٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان،ت ٦٨١،تحقيق: إحسان عباس، المطبعة: لبنان - دار الثقافة، الناشر: دار الثقافة.

٢٦- الحدائق الناضرة، المحقق البحراني، ت ١١٨٦،: تحقيق وتعليق: محمد تقي الإيرواني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٧-رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، السيد علي خان المدني الشيرازي، ت ١١٢٠،تحقيق: السيد محسن الحسيني الأميني، ط٤،سنة الطبع: محرم الحرام ١٤١٥، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي.

٢٨-الصحيفة السجادية (ابطحي)، الإمام زين العابدين عليه السلام ت٩٤، تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الابطحي الإصفهاني، ط١،سنة الطبع ١٤١١، المطبعة: نمونه - قم، الناشر: مؤسسة الإمام المهدي عجل الله فرجه / مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر - قم - ايران.

٢٩- الصحيح، البخاري، ت ٢٥٦،١٤٠١ - ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم،الآلوسى سيد محمود، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت.

٣١ - مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسى فضل بن حسن، الناشر: انتشارات ناصر خسرو،طهران.

٣٢- المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، ت ٨٥٠، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٣٣ - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد،ت ٦٥٦،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،سنة الطبع: ١٣٧٨ - ١٩٥٩م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.



الفهرست

